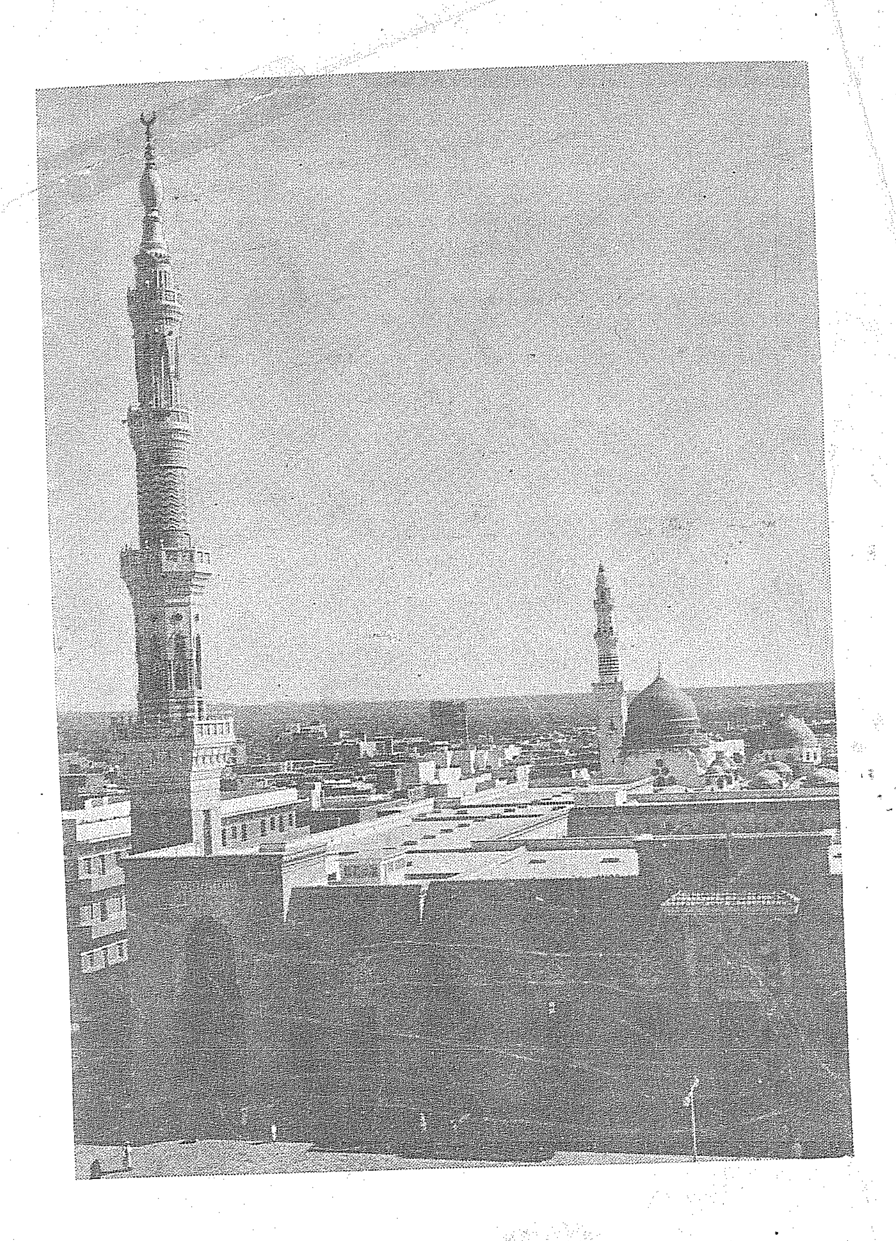
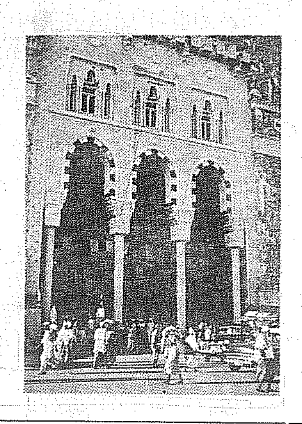


العدد



المسجد النبوى الشريف والقبة الخضراء .



المسجد الحرام اقدم المساجد وأفضلها ، واوسعها ، ويتكون من طابقين ويتسع لـ ٣٠٠ الف ، وتبلغ مساحته (١٦٠١٦٨) مترا مربعا ، فى الصورة منظر رائع لأحد مداخله بعد التوسعة الأخيرة وهو تحفة فنية جميلة .

الوعي الإسلامي

اسلامية ثقافية شهرية

AL WAIE AL ISLAMI

Kuwait P.O.B 13

السنة السادسة

العدد الحادى والسبعون

ذى القعدة سنة ١٣٩٠ هـ

٢٩ ديسمبر « كانون الأول » ١٩٧٠ م

تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية

بالكويت فى غرة كل شهر عربى

هدفها : المزيد من الوعى ، وايقاظ الروح ، بعيدا عن الخلافات المذهبية والسياسية

الثمن

الكويت	٥٠	فلسا
السعودية	١	ريال
العراق	٧٥	فلسا
الاردن	٥٠	فلسا
ليبيا	١٠	قروش
تونس	١٢٥	مليما
الجزائر	دينار وربع	
المغرب	درهم وربع	
الخليج العربى	١	روبية
اليمن وعدن	٧٥	فلسا
لبنان وسوريا	٥٠	قرشا
مصر والسودان	٤٠	مليما

الاشتراك السنوى للهيآت فقط

فى الكويت ١ دينار

فى الخارج ٢ ديناران

(أو ما يعادلهما بالاسترلينى)

أما الافراد فيشتركون رأسا

مع متعهد التوزيع كل فى قطره

عنوان المراسلات

مدير ادارة الدعوة والارشاد

وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية

ص. ب ١٣ هاتف ٢٢٠٨٨ — كويت

وقل رب زدني علما

تفضل حضرة صاحب السمو أمير البلاد المعظم في الساعة الرابعة من بعد ظهر السبت - ١٩٧٠/١٢/٥ بافتتاح الاجتماع الثاني للدورة الرابعة لمجلس اتحاد الجامعات العربية وحفل توزيع شهادات الدرجات العلمية على خريجي الدفعة الاولى من جامعة الكويت .

وقد بدأ الحفل بالسلام الأميري ، ثم مر موكب أعضاء مجلس الجامعة والأساتذة وبعد ذلك أحد طلبة الجامعة آيات مباركة من كتاب الله . ثم قام وزير التربية صالح عبد الملك الصالح ومدير الجامعة الدكتور عبد الفتاح اسماعيل بدعوة صاحب السمو الأمير المعظم لالقاء النطق السامي التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الضيوف الكرام ، حضرات السادة ، ابنائي الطلاب والطالبات .

انه لمن دواعي سروري ان افتتح اليوم الاجتماع الثاني للدورة الرابعة لمجلس اتحاد الجامعات العربية ، هذا الاتحاد الذي كان انشاؤه في عام ١٩٦٤ فكرة موفقة ونرجو ان يحقق اهدافه السامية بتوثيق عرى التعاون بين الجامعات العربية الممتدة من الخليج الى المحيط ورفع مستوى العلم الجامعي بما يكفل للشباب العربي بلوغ القدر الامكن من الكفاية والنهوض بالبحوث العلمية والتطبيقية بشتى المجالات . كما يسرنا ان نحتفل اليوم لأول مرة بتوزيع شهادات الدرجات العلمية على خريجي الدفعة الأولى من طلاب وطالبات جامعتنا .

وهكذا شاءت الظروف ان تشاركنا الجامعات الشقيقة فرحتنا بقطف الثمار الأولى لجامعتنا الفتية . كما شاركتنا من قبل منذ حوالي اربعة اعوام في حفل افتتاح هذه الجامعة التي اردنا لها ان تتوج هامة التعليم في بلادنا لتكون صرحا شامخا وحصنا للفكر والبحث العلمي .



سمو أمير البـلاد
يتفضل بافتتاح الاجتماع الثانى للدورة الرابعة لمجلس اتحاد الجامعات العربية وحفل توزيع شهادات الدرجات العلمية علـى خريجي الدفعة الاولى من جامعة الكويت .

ودعامة راسخة للمستقبل نصون بها نهضتنا ونقيها عوامـل الجمـود والتخلف .

لقد هيأ لكم وطنكم السبل للتزود من العلم فى اعلى مراتبه لـكى تحملوا نصيبكم انتم ومن يأتى بعدكم من الخريجين ، من المشاركة فى بناء هذا الوطن على أساس الايمان والاخلاص والوفاء . وبهـذا يستطيع بلدنا الحبيب أن يجابه تحديات عصر أصبح العلم فيه أمضى الاسلحـة ، ويسهم فى جهود امتنا العربية من أجل أحياء تراثها المجيـد ، وتحقيق المزيد من تقدمها وازدهارها .

ويطيب لى فى هذه المناسبة أن أقدم لكم من كل قلبى اخلص التهنئة لتخرجكم متمنيا لكم مستقبلا سعيدا مثمرا ، كما يطيب لى أن أوجه التهنئة الى أبناء الخليج العربي وأبناء البلاد الشقيقة والصديقة الـذين تخرجوا معكم بعد أن نهلوا من نفس نبعكم .

وانه ليسعدنى فى ختام هـذه الكلمة ان أوجه أطيب التحية والتقدير الى اساتذة جامعتنا وجميع العاملين فيها والى الضيوف الكـرام الذين شاركونا يومنا هذا .

والله اسأل ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير العميم لبـلادنا وأمتنا العربية والاسلامية والانسانية جمعاء وان يهيء لنا سبل النصر المؤزر من عنده .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه .

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الشهر

الهَدْيُ في الحج

تكثر الاحاديث فى هذه الايام حول الذبائح التى يتقرب بها الحجاج الى الله تعالى فى موسم الحج ، ومن خلال هذه الاحاديث نلمح ظاهرة غريبة تبدو هينة فى نظر المتحدثين ، ولكنها كبيرة عند الله ، فكل واحد منهم يعطى نفسه ببساطة وسهولة حق الفتيا والجرأة على شريعة الله ، ولو أن هؤلاء المفتين الجرءاء على دين الله ردوا الامر الذى اختلفوا فيه الى الله ورسوله واولى العلم لما وقعوا فى هذا الحرج ، معرضين انفسهم لغضب الله ومقته ، ورحم الله السلف الصالح الذين كان الفرد منهم يوزن بالدنيا علما وفضلا ، ومع ذلك فقد كان لا يفتى فى أمر من أمور الدين الا عن روية ودراية خوفا من أن يدخل تحت طائلة « أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار » .

أمامى احصائية نشرتها حديثا احدى المجلات الاسلامية ، ونسبتها الى أحد الاطباء البيطريين الذين أشرفوا على المسلخ فى منى خلال موسم الحج الماضى .. تقول الاحصائية أن (٧٤٥٠٠٠) راس ذبحت فى المسلخ أيام عيد الاضحى ، ولكن التى خرجت من هذه الكمية الضخمة للانتفاع بها هى (٢٠٠٠٠) عشرون الف رأس فقط يعنى أن الباقى من الذبائح وقدره (٧٢٥٠٠٠) رأس دفنت فى التراب ، وذهبت هدرا دون أن ينتفع بها أحد هذا فضلا عن الماشية التى ذبحت خارج المسلخ ، وهذا يعنى على اقل تقدير أن ثلاثة أرباع المليون من الانعام بلحومها وجلودها وأصوافها تذهب كل عام هدرا .

هذه أعداد ضخمة ، وثروة طائلة من غير شك ، وهذه مشكلة قائمة تستلزم التفكير والحل السريع ، ولكن المفتين وأصحاب الحلول يختصرون الطريق ، ويندفعون الى التحلل من أحكام الله ، ويرون الاستعاضة عن الذبح بالنقود وتوزيعها على الفقراء وأصحاب الحاجة ،

ان الأمر لو ترك لأمثال هؤلاء يحللون ويحرمون ، ويتأولون ما لا يفقهون باسم يسر الشريعة وتطورها مع كل زمان ومكان ـ لأدى ذلك على ممر الايام الى التعديل والتغيير فى صور العبادات ، وما أيسر ذلك على أصحاب القلوب المريضة والافكار الشاذة .

وقد تنبه الى خطر هذه الجرأة على دين الله العلماء الراسخون . قال

الشيخ محمود شلتوت : ان الهدى من شعائر الله التى يجب المحافظة عليها ، ولا يصح التهاون فيها واغفالها ، وحسبنا « لا تحلوا شعائر الله » والشعائر هى العلامات الواضحة الظاهرة التى اعتبرها الدين مظهرا من المظاهر العامة ، وهذا لا يتحقق الا بعمل ظاهر يراه الناس فى مناسبات خاصة .

ان للشعائر فى نظر الاسلام مكانة الفروض المقدسة ، وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء فى ذبائح الحج ، ولم نر لواحد منهم خلافا فى ذلك نزولا على حكم الآية الصريحة الواضحة وهو التقرب الى الله باراقة الدم ، ولله سبحانه أن يتعبد عباده بما يشاء . بما يدركون حكمته ، وبما لا يدركون ، وما كان اختلاف الفرائض فى عدد الركعات والكيفيات وتحديد الاوقات واختلاف مقادير الزكاة والكفارات وسائر ما دخل فى العدد أو اعتبرت فيه الكيفية الا نوعا من التعبد الذى يتجلى فيه بوضوح مقتضى العبودية الحقة .

ان النفع المادى ليس هو كل المقصود من الذبح واراقة الدم ، والذين ينظرون الى الهدى من خلال هذه الزاوية يبعدون كثيرا عن فقه التشريع الذى يربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره وقد كان المسلمون الاولون يغالون فى الهدى ويختارونه سمينا غالى الثمن ، يعلنون بذلك تعظيمهم لشعائر الله ... روى عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نجيبا ، فأعطى بها ثلاثمائة دينار ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله انى أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاثمائة دينارا ، أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا ؟ قال : لا انحرها اياها .

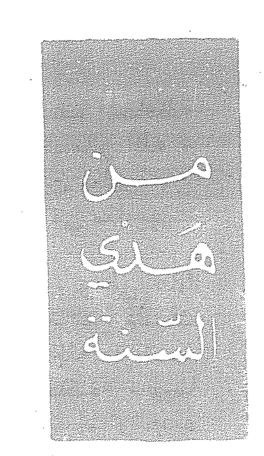
ان الذين يحملون التشريع مسئولية ضياع هذه الثروة غير منصفين ، والذين يتأولون النصوص الصريحة ، ويرون استبدال النقود بالهدى بعيدون عن الصواب ، فكثرة الذبائح فى منى يرجع الى أمرين :

١ ــ عدم الالمام بأحكام الشرع فى الهدى ، فالشريعة لا تفرض على كل حاج ان يذبح وانما أوجبته فى بعض الحالات كالتمتع أو ترك واجب من واجبات الحج ، أو فعل محرم من محرمات الاحرام ، وليس كل الحجاج متمتعا ولا تاركا لواجب ولا فاعلا لمحظور ، كما أن الشريعة لم تفرض على كل من وجب عليه الدم أن يذبح فى منى وفى أيام النحر .

٢ ــ الاهمال والتقصير فى استخدام الطرق العلمية الحديثة فى حفظ اللحوم والانتفاع بها على مدار العام ، فلماذا لا تنشأ هيئة اغاثة اسلامية تقوم بجميع هذه الذبائح وحفظها وتوزيعها على مئات الالوف من المسلمين المشردين المنكوبين فى العالم الاسلامى ... اننا فى عصر تغمر فيه أسواقنا اللحوم المثلجة والمعلبة المستوردة .. ان دين الله يسر ، ولكن فى العقول ضيق وفى الجهود قصور ، ولا يمكن أن نحمل التشريع آثار هذا الضيق ، ولا نتائج هذا القصور .

زهران البيلي

مدير ادارة الدعوة والارشاد



من الكلم الطيب

للدكتور : علي عبد المنعم عبد الحميد

المستشار الثقافى لوزارة الاوقاف والشئـون الاسلامية .

عن ابن عباس رضى اللـه عنهما قال :كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « يا غـلام انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل اللـه ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على ان يضروك بشىء لن يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام وجفت الصحف » .

حديث حسن صحيح

١ ـــ أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عبد اللـــه بن عباس رضى الله عنهما خلفه ، وتحدث اليه طويلا موجها الى الله ، ودافعا الى أساس السعادة ومصدرها ، وحكى ذلك ابن عباس فقـال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم القى الى قولا حكيما ، ورسم لى خطة شاملة للسير فى الحياة الدنيا ، وبدأ حديثه الشريف بقوله عليه الصلاة والسلام : « يا غـلام أو يا غليم : احفظ الله يحفظك » وبدهى لـدى ذوى البصائر أن الله مالك كـل شىء وخالقه ومدبره ، لا يعزب عن علمه ، ولا يبعد عن قدرتـه كائن ، لأنـه سبحانه المكون ، والبارىء والموجد ، والمبدىء والمعيد ، فمن أراد القـوة والسيادة والقيادة الحقـة المنتجـة للخير ، النافعة للبشرية ، فلينشدها فى رحاب الله ، ومن أحب علم ما لم يعلم ، وفقه ما لا يدرى ، وانفتاح سبل وكوى المعرفـة الكليـة والجزئية ، فليتجه الى الله وحده ، ومن طلب المـال والجاه والبسطـة فى الرزق واتساع السلطان فلن يجد أسس ذلك كله الا عند الله ، ومن رام ما يرام من فضائل الوجـود ومزاياه المتمثلة فى جمال اتساقه ، وبداعة تنسيقه ، وعمق دلالته على موجده الحق ، فلا مناص له من أن يطرق أبواب رحمة الله ، فكـل ما ترى وما لا ترى مما يحس وما لا يحس من كائنات علوية وأرضيـة مكونة ومقدرة ومرسومة على ألواح الطبيعة من ابداع رب كل شىء .

واقتضت حكمة الله وقامت على ذلك البراهين الواقعية والعقلية على أن الأخذ فى الأسباب للوصول الى الأهـداف شىء لا بد منه ، ولا مناص

عنه ، ولا محيص من التمسك به ، فمن أراد اجتياز قناة صغيرة لا يتأهب له كما يعد عدته للسفر الطويل على متن الأوقيانوس مثلا ، ومن رغب الوصول الى هدف قريب يقاس بالأمتار ، لا يهيء له القوى التى تلزم للمسافات البعيدة أميالا ، ومن أحب مشاهدة منظر الى جواره على حائط أو بساط الطبيعة لا يحتاج الى منظار يقرب ما نأى عنه وبعد ، فلكل شيء وسيلة مناسبة ، ولكل عمل جهد يوافقه ، والنفوس تتفاوت فى الهمم ، والعقول لا تتساوى فى الادراك ، والقوى لا تتقارب فى الشدة والضعف ، تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تبديلا .

٢ — ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاس به فى توجيهه وقيادته بشر ، وان كان من طينة الأناس فهو المختار ، والمصطفى لمهمة لا نظير لها ولا مشابه ولا مماثل ، مهمة دون الوصول الى غايتها تدق الأعناق ، وتتلاشى القوى ، تلك هى وضعه أسس كمال انسانى فى كل صور ذلك الكمال ، مهمة هى تبليغ تعاليم رب القوى والقدر الى من فضلوا على بعض من خلق ليقودوا كل من خلق ، وأوجدوا لغاية أرادها الله ، ومن أجلها براهم ، مهمة تتمثل — ان صح القياس — فى قوة أصول كل ما يفكر فيه بشر من خير يرقى بالانسانية ويعلو بها الى مدارج السماء وأسبابها ليتصلوا بالملأ الأعلى ملائكة ويتجافوا عن الارض فلا يلتصقوا بترابها شياطين ، تتعهد الطفل والصبى بحكمته والشاب والشارخ والكهل والشيخ برعايته ، وهدايته باذلا صلى الله عليه وسلم جهدا لا يقوى عليه بشر من البشر الا رسول مشمول برعاية الله وهدايته وتوجيهه وارشاده واعداده الطويل لتلك المهمة الشاقة ، ولكل هذا صبر مع صنوف الناس حتى وصل بهم الى ما أراد الله من معرفة بالدين وفقه للقواعد وادراك للأحكام ، ما ترك شيئا الا دل عليه ، وأخبر عنه ، ووضحه ، وأبرزه لذى عينين ، وفقه ذلك صحابة وتابعون وتابعوهم ، وما كان ذلك مهما كان ليمنع وقوع بعض الشرور التى تغتال الارواح وتعدو على المال ، وتنتهك الأعراض لأن هذا من سنة الله أيضا ، وهو أن يتعاور الخير والشر على هذا الوجود ، والموفق السعيد من لاذ بحمى الله وقوته ، وعزف عما يرديه فى مهاوى الشر والهلاك ، وتمسك بحبل الله ، والقى رحاله فى رحابه ، ولا يجيء ذلك عفوا دون اعمال جهد وارهاق نفس ، وتقويم معوج فلا بد من عمل ولا مناص من ارهاق فى سبيل الهدف ، ولا يمكن أن يصلك أو تصل الى ما تبغى دون جهد جهيد ، وعمل دائب ، وتجاف عن الراحة ، واطراح للذات الأنفس الفانية ، فمن تواكل تآكل ، ومن ضعف عن السير هلك فى صحراء الوجود ، وتاه فى بيدائه ، ومن لم يعمل جهده البدنى والفكرى والعصبى ويلقى بلدوه فى الدلاء يموت ظمأ على حافة بئر مليء بالماء ، ولكن لا بد من الأسباب يا أبناء الدنيا .

٣ — ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) وانقلب الناس على أعقابهم وخاصة فى عصرنا وما سبقه من عصور تتصل بأسواره وتلاصق جدرانه ، وحقت كلمة الله (نسوا

الله فأنساهم أنفسهم) وتوالت المحن وولجت الى الدور الخاصة والعامة ، فلا تجد بيتا مسلما على شرعة اسلامه ، ولا مجتمعا حمل الاسم الا وقد تخلى عن الأسس ، ولا رجلا أو امرأة الا ما ندر (والنادر لا حكم له) الا شاكيا من لحمة دم ، ووشيجة رحيم ، وطغى الفساد وزاد ، وعم وتراكم ، وجاء دور جنى القطوف ، ولسوء حظنا عاصرنا بعض الوانه ، اختلاف فى الاقطار ، وتطاحن بالآراء ، ونفاق فى عمل ، وانتهاك لكل حرمة ، ثم تعد على الأرواح ، واستهانة بمقدرات الآخرين ، ونسيان كامل لكل علاج ورفض شامل لرأى فطس الأطباء ، ولوى الجميع أعناقهم بعيدا عن النور ، وأحبوا السير فى الظلام ، وسائر الظلام مرتبك حيران قد يصيب نفسه حين تزل به قدمه فى مغارة ، وحين تحمله ساقاه الى متاهة ، فهو لا يفكر الا فى شحم ولحم حمل ، والا فى غرائزوهوايات بها اتسم ، فلا يعرف بعيدا عن هيكله مستحقا لرحمة أو معونة ، فليمت الجميع ليحيا ، ويفنى الكل ليعيش الفرد ، وساد استعمال انتاج معامل السلاح ومصانعه ، ودر ذلك الثراء على تجار الحديد والنار ، وركب زعيمهم طائرته ليحلق فوق الرمم التى ضاقت بها القبور ، وليسعد ناظريه بلون الدماء يخضب الأرض ، وتأبى الارض اخفاءها ، وليشم رائحة الجثث المحترقة ، والحقول المبادة ، ولم يرعو أمام أطفال لا حول لهم ولا طول ، ولم يحرك عواطف الرحمة فيه بطون حوامل تبقر ، وأعراض تنتهك ، وصار قلبه حجرا من الحجر ، أو حديدا صلدا من نوع لا يلين بالنار ولا يخضع للطرق ، وسار الكل الى الهاوية ، وها هم سائرون ولات حين مناص .

٤ — وجملة واحدة من توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (احفظ الله يحفظك) تلوى عنان الشر وتقضى على الظلام ، وتعلى راية الحق ، ولكن كيف ؟! هذا لا يكون الا بالتربية من الأساس ، والتنبه لمآسى الانحراف ، والضرب بشدة على أيدى قادة الحروب الذين يعيشون للعمل ضد الانسانية ، وما وسيلته الا تنشئة جيل وتربية أطفال وتبديل أنواع الألبان التى يتكون منها العظم حين يبدأ فى الاشتداد ، والاعصاب حين تحاول احتلال مكانها فى الميدان ، ووضع مرائى جديدة أمام الاعين الناشئة ، وملاحقة ذلك باخلاص ونور ، بأخلاص الأنبياء ونور الله وهدايته ، ليتكون جيل على نفس المبادىء النابعة من (أحفظ الله) لتحقق النتيجة الحتمية (يحفظك) وانى ذلك وكيف يتدارك ؟ انه ممكن وليس محالا ، فما فى الدنيا محال ما دامت للرجال عزائم ، وللنساء قلوب ، ولدى الجميع تراحم، وأمامهم قيادة ، والكل ممكن تحققه حين نؤمن بأننا جديرون بحياة كريمة وحقيقون بسلام اسلامى ، ومحتاجون لراحة أبدان وعقول فالمدى طويل والبون شاسع ، والمتاهة مخيفة والغد غيب ومفتاحه مع اليوم ، فمن لا يوم له لا غد يدرك ولا مستقبل يبنى .

٥ — واقول واكرر وأعيد ولن آتى بجديد فكم من قائل للخير ومنبه عليه، وداع الى سلوكه ، ولكن ما هى النتيجة !! تكمن النتيجة فى تحمل الآلام التى تتسلق الى قمة الداعى ، وتتمكن منه ، فنحقق قول سيد البشر (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، فقد خبا يا قوم ضوء الهداة ، وتضاءل نفوذهم ، وظهر عليهم ضعفاء الفكر

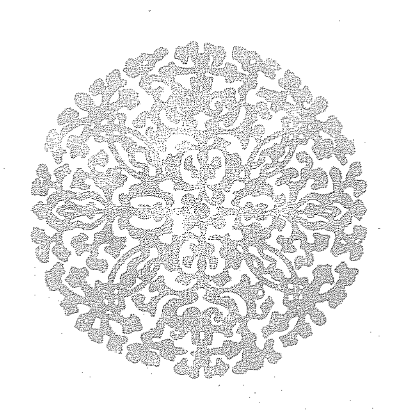
المنقادون لتوجيه الدرهم والدينار ، والسائرون مع المعدات والفتحات والأنابيب،وعرف العادى على الأخلاق كيف يصل ، فاختار ذات الابتسامة الفاتكة ، والقد الأهيف ، واستسلم مقابلوه للترهات ، ولاذوا بحمى ابليس اخترعوه ، بل كان ميتا فأحيوه ، فالنجاء النجاة ، وان شئت فاللطيمة اللطيمة ، والصحو الصحو .

وها هو الخط المرسوم والصور الهادية ، والكلمة الهادفة (احفظ الله يحفظك) ، وكفى ذلك توجيها لمن أراد هداية . ..

واخيرا ــ هل نستطيع أن نجد من نقرأ عنه بديلا عن أن نقرأ له ، ومن نلوذ بظله من حر أنفاسه ، ومن تدمع العين معه حين يلين القلب عوضا عن تمثيل العين ، ومن يضع نفسه موضع خصمه دون لجاجة ، ومن يتصور الواقف أمام عرشه جالسا عليه ، ومن يدرك سائل العطاء مالك المال ، ومن يتأكد من وجوده لخير غيره لا للقضاء عليه ، ومن لا ينسى أن المقام قصير مهما طال فما دام الفناء ملاحقا فلا خلود ، ومن يتأمل الأمثال فى الطبيعة فيعلم يقينا أن الوردة الناضرة ستذبل وتلقى على الارض وتداس ، بعد عز البقاء فى روض وجمال وتنسيق بأرق أنامل، ولثم ثغور تعز أن تضاهى ، وأن هذا البناء الجميل سيصبح اثرا بعد عين ، وأن انهارا غاض ماؤها ، وأن قفرا صار عامرا ، وأن أمما بادت ومضى بها الزمان لا الى عودة ، لعل وعسى وما ذلك على الله بعزيز ولكن واحسرتاه (وكأى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) .

اخى فى الله : ليس هذا وعظا تمر به عينك دون لقاء مع قلبك وانما هى ثقة مصدور ، تبين حقائق غير خافية ، وتكشف ما انكشف من أوادم فى ثياب سباع ، وانس ينطوون على وحوش ، وهل يا ترى أعاد الزمان نفسه فيستطيع الحديث أن يردد مقالة القديم :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذعوى
وصوت انسان فكدت أطير
والعلة ــ نسيان : احفظ الله يحفظك فهل من مدكر ؟!





للدكتور: أحمد الحوفي

اية قوة هذه التى تراقب فى دقة ، وتحاسب فى شدة ، وتضفى على مطيعها لباسا من الأمن والرضا والراحة ، وتعاقب عاصيها بوخزات من القلق والأسى والندم والحسرة ، وتحصى على الانسان ما يعمل سرا أو جهرا ، ولقد يحاول أن يخدعها بتسويغ يصطنعه ، أو تعليل يخترعه ولكنها حصيفة لا يخدعها تسويغ ولا تعليل ، ولا محاولة للفرار ؟

انها الضمير . فما هو الضمير ؟

(١)

اننا نخطىء اذا حاولنا أن ندرك حقيقته ، فانه قوة نفسية لا ترى ولا تسمع و لاتلمس ولا تشم ولا تذاق .

وانى للحواس المحدودة أن تدرك ما يستخفى على الحس ، ويستعصى على الادراك ؟

ولماذا نتطلع الى ادراك خفايا النفس ونحن نجهل كثيرا جدا مما عداها ؟ فهل رأينا ما بالذرة من كهارب والكترونات ، ونحن لا نعرفها الا بآثارها التى كشفت عنها الأجهزة العلمية التى فجرتها ؟

وهل أبصرنا النتح والتمثيل الكلوروفلى بالشجرة الخضراء التى نستظل بها ، ونعجب بمرآها ، ونطعم من ثمرها ، ونحن لا نعلم هذا الا بأجهزة ومخابر ؟

وهل نسمع أو نبصر ما يزخر به الفضاء المحيط بنا من أصوات وأنغام وأحاديث وصور الا اذا ضغطنا على زر المذياع أو التلفزيون ؟

وهل ننظر بأعيننا ، أو نسمع بآذاننا ، أو نلمس بأصابعنا ، أو نشم بأنوفنا ، استحالة الطعام الذى نأكله أو الشراب الذى نشربه الى دم يجرى فى الشرايين والأوردة قوة وحياة ؟

وماذا نعلم عن الكهرباء الا أنها قوة تسرى فى أسلاك تبدو آثارها اذا ما أدرنا زرا من الأزرار المعدة على نظام خاص ؟

فلا علينا أن نجهل حقيقة الضمير كما نجهل كثيرا من حقائق الكون ، ولا علينا أن نؤمن بالضمير من آثاره التى تحس ، كما نؤمن بسواه مما يتبدى لها من مظاهر وآثار ، ولقد صدق الله تعالى فى قوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

(٢)

لكن الضمائر تتفاوت قوة وضعفا، وتتباين يقظة وغفلة ، وتتغاير نشاطا وخمولا ، وتختلف رهافة وغلاظة .

ففى الناس من منح ضميرا دائم اليقظة والنشاط والرهافة ، كأنه حارس البيت الحريص لا يفتأ يعس حوله طوال الليل ، يتسمع كل نأمة ، ويتحسس كل حركة ، أو كأنه شرطى المرور يراقب مسير السيارات ليصرفها باشاراته الحمراء والخضراء لتتوقف أو تمضى .

وفى الناس من يصحو ضميره حينا ، ويغفو حينا ، وينشط تارة ، ويكسل تارة ، ويسيطر مرة ، وينقمع مرة ، كشمس الشتاء تسفر ساعة ، وتحتجب خلف السحاب ساعة .

وفيهم من يصاب ضميره بالخدر والخور ، فيسترخى ويطول به الاسترخاء ، ويهجع ويمتد به الهجوع وقد ينام ويستطيل به زمن المنام .

وبين هذه الحالات درجات وطبقات ومنازل مختلفات .

على أن الضمير اليقظ ربما يغفو ، والضمير المترجح بين اليقظة والغفوة قد يصحو ، والضمير الهاجع قد ينشط ، لأن بصيص نوره قد يوقظ صاحبه ، أو يحاول أن يوقظه ، ولقد يهزه هزة عنيفة لا تمكنه من رقاد .

أكتب هذا وأنا على شاطىء البحر وقد رأيته يوما يمور ويفور ، وتتلاحق كتل أمواجه كفيالق الجنود فى الميدان وأبصرته يوما آخر يتوسط بين الهدوء والهياج ، ونظرته يوما ثالثا ساجيا كبساط أو دارة فى الصحراء .

وأحسب أن الضمائر على هذا الغرار .

فالضمير الحى متحرك دائم الحركة ، يقظ متلاحق اليقظة ، لا تعتريه فترة ولا هداة ، كالبحر المائج والضمير المترجح بين اليقظة والغفلة كالبحر يهيج يوما ويسكن آخر . والضمير النائم هو البحر الذى سجا وسكن وركد .

والضمائر فى تنقلها من حال الى حال كالبحر يصخب يوما ويهدأ يوما ثم يتوسط بين هذا وذاك .

وكما أن البحر الساجى قد يسرى فى أعماقه تيار لا يرى ، فكذلك الضمير النائم قلما يموت ، وقلما يطغى عليه الرقاد .

(٣)

ومن نعم الله على عباده أنه كرمهم بالعقل وبالنطق وبالشرائع التى بعث بها الرسل ، وكرمهم أيضا بهذه القوة السامية التى تميزهم من الحيوان وهى « الضمير » .

فهل نعدو الصواب اذا تخيلنا الضمير الحى شعاعا إلهيا ينير الطريق الى الحق والى الخير ، أو صوتا ربانيا يحذر من الشر ومن الباطل ؟

ان الضمير مظهر من مظاهر تقوى الله ، لأنه يخضع النفس للطاعة وان اطمأنت الى النجاة من تبعة الجريمة والعصيان .

هـذا الضمير الحى هـو ضمير الاتقياء الاتقياءالذين وصفهم الله تعالى فى قوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو مـا ملكت أيمانهم فانهـم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئـك هـم العـادون ، والذين هم لأمـاناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهـم يحافظـون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » . (المؤمنون) .

وهم أصحاب عـزائم قوية تقمع وساوس الشـيطان ، وتردهم الى الطاعة والى الحق والخير ، قـال تعالى : (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فاذا هم مبصرون » .

لهذا يتحـامون الشبهات عمـلا بقـوله صلى الله عليـه وسـلم : « الحـلال بين ، والحـرام بين ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حـول الحمى يوشك أن يقع فيه . الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله فى أرضه محارمه ، الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب » .

وهو — فى حالة أخرى — النفس اللوامة التى كرمها الله تعالى بالقسم بهـا ، فقـال : « لا أقسم بيـوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الانسـان أن لن نجمـع عظـامه ، بلى قـادرين على أن نسوى بنانه » . (سورة القيامة)

وهـذه النفس اللوامة هى بعض صفات المتقين فى قـوله تعـالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعـدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضـراء ، والكـاظمين الغيـظ ، والعـافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلمـوا أنفسـهم ذكروا اللـه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » . (آل عمران) .

وهم سرعان ما يرجعون الى الله بالتوبة نادمين فيتوب عليهم : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليمـا حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قـال : انى تبت الآن ، ولا الـذين يموتون وهم كفار ، أولئك اعتدنا لهم عذابا اليما » .

أمـا الضمير النائم فهـو ضمير المعـاندين المكابرين الذين يعلمون الحق وينكرونه ، ويعـرفون الخير ويجتنبونه ، ويسيرون وراء أهوائهم كل مسير .

وهؤلاء ينطبق عليهـم قول الله تعالى : « فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب اليم بمـا كانوا يكذبون » .

وقـوله سـبحانه : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجـر منه الأنهـار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعلمون » .

وقوله تعالى : « ومن الناس من

يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو الد الخصام . واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد » .

هذا الضمير كالطفل أو كالفسيلة ، يحتاج الى تربية وتغذية وتنمية ، كما يحتاج الجسم ، وكما يفتقر الشجر .

فالدين يربيه ، والقدوة الصالحة تغذيه ، والبيئة الخيرة تنميه ، والسلوك القويم يدربه ويهديه ، على حين أن ضعف التدين ، أو فساد القدوة أو نغل البيئة أو انحراف السلوك يضل الضمير ويصمه ويعميه .

فلا عجب أن كانت الضمائر الحية أوفر كثرة ، وأحد يقظة ، وأقوى أثرا ، في المتدينين ، وفي الذين يحيون في مجتمعات خيرة ، وفي الذين يجدون الأسوة الفضلى والقدوة المثلى منذ سن مبكرة .

لهذا أوصى الاسلام بمخالطة الأخيار ، وحذر من معاشرة الاشرار ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد ، لا يعدمك من صاحب المسك اما أن تشتريه أو تجد ريحه ، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة » .

وقال : « ما استخلف خليفة الا له بطانتان : بطانة تأمره بالخير ، وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر ، وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله » .

ورغب الاسلام في القدوة الصالحة ، نجعل ثوابها مضاعفا يعدلها ويعدل ثواب من عملوا بها ، وخوف من القدوة الطالحة نجعل عقابها معادلا لها ولذنوب من عملوا بها ، قال عليه الصلاة والسلام : « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

وحض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

وهكذا يحرص الاسلام على تربية الضمائر بشتى الوسائل ، لأنها لو صلحت صلح الفرد والامة ، ولو فسدت فسد الفرد والأمة ، فهى كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب » .

بعد هذا العرض للضمير ، وانواعه ، وحالاته ، ووسائل تنميته وعناية الاسلام بتربيته .

ننظر الى بعض آثار الضمير فى الفرد وفى الامة ، لندرك مدى قيمته وخطورته وآثار يقظته وانتصاره .

١ ــ هنالك شخص يعلم من أسرار أمته الحربية ما يكفل لهـا النصر الحاسم أن حاربت ، وقد حاول أعداء وطنه أن يغروه بالذهب الوفر ليطلعهم على ما يعلم ، ولو أنه كشف لهم عما أرادوا لم يعلم به أحد . فهل استجاب لهم ؟

ولماذا لا يستجيب والذهب يجاذبه ويخادعه ؟

لماذا يرفض وهو بمنجاة من ذل الفضيحة وشقاء العقوبة ؟

وأى بأس فى أن يسعد هو ويشقى غيره ؟

لكن ضميره صاح به : اياك وما

يغريك به أعداؤك وأعداء وطنك ، فان ذهبهم ثمن لذل يحيق بـــك وباخوتك ، ومكافأة على جريمـــة لا يغفرها لك الدين ولا القانـــون ولا الخلق الكريم ، وستجد هذا الذهب جمرات تكوى جبهتك وجنبيك وظهرك وقلبك ، ولن تنعم بشيء وأنت شقى ووطنك تعيس .

فلتمش عفيف (اليد) نزيه (النفس) طاهر (الضمير) سعيدا بأن وطنك فى عزة ، وبأن مواطنيك أعزة .

فلم يتردد فى أن آثر الشرف على الخسة ، فقال لضميره : لبيك لبيك ، ورد الأعداء فى خزى بما عرضوا .

ثم انتصر وطنه ، وســـعد بنوه بانتصارهم ، وشعر هو فى أعماق نفسه بسعادة مضاعفة لا تعدلهـا قناطير من ذهب ولا من نشب .

وبهذا سلم من جناية الخيانة ووبال المال المحرم ، وعمل بقوله صلى الله عليه وسلم : « أد الأمانة الى من أئتمنك ، ولا تخن من خانك » وقوله : « أيما رجل أصاب مالا من غير حله وأنفق منه لم يبارك له فيه ، وأن تصدق لم يقبل منه ، وما بقى فزاده الى النار ، أن الخبيث لا يكفر الخبيث ولكن الطيب يكفر الطيب » .

٢ ــ وهنا قاض يفصل فى قضية كبيرة الحق فيها مع ضعيف ، والباطل مع قوى ثرى ، فيحاول القـوى أن يستميل القاضى الى جانبه ، فيغريه بسيارة أنيقة يقدمها له بطريقة ملتوية مستورة . فاذا بالقاضى النزيه ينفر من هذا العرض الموبوء ، ويقـول لنفسه : وأين سلطـــان العدالـــة الذى اقسمت أن أرعاه ؟ ومن أين لى أن أتهرب من رقابة الله وشديد عذابه يوم يحاسب كل امرىء على ما فعل فى دنيـاه ؟

وكيف يسوغ لى أن أمتلـك ما لا بوسيلة محرمة تحريما لا يخفف من شدته وشناعته دين ولا عـرف ولا قانون ؟

ومن للضعفاء اذا سطا عـــلى حقوقهم الاقوياء ؟

وماذا يكون شعور الناس أن فقد العدل سلطانه على الناس ؟

ألا تتقلص قيمة العدالة ؟ وتتضاءل رهبة القانون ، وتتخـــاذل أقدار القضاة ، ثم تشيع الفوضى والظلم والفساد ؟

لخير لى أن أمشى على قدمى وأنا حى الضمير ، نقى النفس ، طيب الأحدوثة من أن أركب سيارة أنيقــة والاوزار تركبنى ، وأثقال اللوم والندم تبهظنى ، ومخاوفى من عقاب اللـــه تلحق بى وتسبقنى .

لقد قرأت ووعيت قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان اللـــه نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعـــا بصيرا » .

وقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفســـكم أو الوالدين والاقربين ، ان يكن غنيا أو فقيـرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقـوى ، واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون » .

وقرأت وفهمت قوله صلى الله عليه وسلم : « من أعان ظالمــا ليدحض بباطله حقا فقد برئت منه ذمـــة الله وذمة رسوله » .

وقوله : « من ابتلى بالقضـــاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظـــه وأشارته ومقعده ومجلسه » .

وعرفت من عدالة النبى أن امرأة من

مخزوم سرقت ، فأحزن قريشا شأنها، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ؟ ومن يجترىء عليه الا أسامة بن زيد حبيبه ؟

فلما كلمه أسامة قال رسول الله : أتشفع فى حد من حدود الله ؟

ثم قام فخطب ، وجاء فى خطبته قوله : « انما أهلك الذين قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . فليرفع العدل علمه خفاقا ، وليزدد ضميرى الحى قوة واشراقا ، وليذهب الثرى برشوته الى أمثاله من موتى الضمائر ، وساء المصير ، وليعتقل لسانى بالشلل ان نطق بحكم يأباه ضميرى الذى أكرمنى به الله تعالى .

٣ ــ وهذا أستاذ بالجامعة معروف بوثاقة الحزم ، وقوة العزم ، وسداد القصد ، وسلامة التقدير .

رسب فى علم يدرسه شاب وحيد لوالد موسع متطلع فى لهفة الى أن يحمل وحيده شهادة ، وتكرر رسوبه ، فظن الوالد أنه قدير على رشوة الاستاذ ، فعرض عليه فى خفاء قدرا من المال يزيد على ما يتقاضاه فى عام .

لكن الاستاذ فكر وقدر ، فقالت له نفسه : انك تقضى فى مصير الشباب ــ وهم فتيان اليوم ورجال الغد ــ بسلطان من نفسك ، وبرهان من علمك ، ونور من ضميرك ، فكيف تمنح نجاحا من يصر على رسوب ؟

وأنى لك أن تتيح الصحة من يؤثر المرض ؟

وهل لك أن تصف بالعلم من يؤثر الجهل ؟

ومتى تساوى الغبى والذكى ، والمهمل والجاد ، والخامل والعامل ؟

ولو أنك فعلت ذلك ، وفعل غيرك مثل ذلك ، فماذا يصير حال الامة فى مستقبلها القريب والبعيد ؟

وأية خيبة تصيب الشباب التواق الى المعرفة ، وتصيب الاسر الحريصة على أن ينجح بنوها بالحق والعدل ؟

وماذا تصنع بمال كل قرش منه يسمك بالضلال ، ويصمك بالخزى ، ويكويك بالألم ؟

ولئن احتملت هذا ــ ولن تحتمله فبم تدافع عن نفسك أمام الله يوم لا ينفع مال ولا بنون ؟

انك اذن قاض ظالم زينت له الرشوة أن يعصى ربه ، ويخالف ضميره ، ويميل مع الهوى ، فليتبوأ مقعده من النار .

فقال الاستاذ لنفسه : سمعا لك سمعا ، وسمعا لضميرى سمعا ، وسحقا للمال ، وبعدا للضلال ، وليرسب الشاب أو ينجح جزاء وفاقا لما أجاب ، ولتقطع يمينى لو وقعت على ورقته بنجاح وهو لا يستحق النجاح .

٤ ــ وثمة رجل أغراه الشيطان بامرأة ، وتكرر الاغراء ، ثم كانت خلوة دبرتها المصادفة ، فهم بها وهمت به ، لكنه سمع هتافا عاليا من ضميره أتقترف اثما حرمه الله لتحظى بلذة عاجلة تصطلى بعدها بنار الآجلة ؟

أتقوم على ما تأباه لامك وابنتك وأختك وزوجتك ؟

أتعتدى على عرض ترتبط به سمعة أسرة وشرف رجال ونساء ؟

أتلوث نسلا بدخيل لا هو ينتسب اليك قانونا وشريعة ، ولا هو ممن سينسب اليه حقيقة وطبيعة ؟

وبم تسوغ فعلتك أمام ضميرك اذا أفاق من غفوته ، وجعل يقطعك مزقا وأشلاء ؟ .

وماذا تقول لربك حينما تعرض

عليك صحيفتك السوداء لتقراها ، وقد أحصت صغائرك وكبائرك ؟
أليس فى الحلال الذى شرعه الله غنية عن الفحشاء التى حرم الله ؟
ألم تسمع قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنا ، أنه كان فاحشة ، وساء سبيلا » وقوله سبحانه : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله أن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » ألم تسمع قول النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة فى ظله يوم لا ظل الا ظله « ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : انى أخاف الله » ؟
فلتبرأ من نزغة الشر ، ولتنصرف عن نزعة المنكر ، ولتفر من هذه الهوة ولتطب نفسا بأنك أصخت لضميرك ، وأهتديت بهداه ، فسرعان ما نجا الرجل ، وطابت له النجاة .
٥ ـــ وذلك صانع ماهر حرفته أصلاح السيارات ، سول له الشيطان يوما أن يضاعف كسبه بالتمويه والغش ، فيضع قطعا بالية يزعم أنها جديدة ، ويصلح الظاهر ويدع الباطن ، ليتقاضى أجر الذى أصلح الفاسد ، وبدل التالف .
ولكن ضميره استيقظ ، فأنبأه بما يلحقه عمله من أذى بالذين أئتمنوه ، فقد تحترق السيارة بمن فيها ، وقد تنحرف الى هاوية فتقلب ، وربما تتأبى على التوقف فتصدم شخصا أو عدة أشخاص ، والمسئول الحقيقى هو الذى زعم أنه أصلحها وهو لم يصلح ، فكيف ينجو من عذاب الضمير ؟ وأين يهرب من أشباح جريمة تلاحقه ؟
ومن الذى يضمن له أنه لا يحيق به شر أنكى من الذى أوقعه بسواه ؟

وكيف يبتذل سمعته بالامانة ، وشهرته بالدقة ، وأقتران اسمه بالاتقان ؟
وأى عذر له وقد سمع وفهم قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا أن تكون تجارة من تراض منكم » .
وقوله سبحانه : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم » .
وقوله تعالى: «ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » .
وأى فرق بين غش فى صناعة ، وتطفيف الكيل والميزان ؟
ولقد سمع وفهم قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا » وقوله : « من انتهب فليس منا » .
وقوله : « ان أطيب الكسب كسب التجار الذين اذا حدثوا لم يكذبوا ، واذا أئتمنوا لم يخونوا ، واذا وعدوا لم يخلفوا واذا اشتروا لم يذموا ، واذا باعوا لم يطروا ، واذا كان عليهم لم يمطلوا ، واذا كان لهم لم يعسروا » .
فلم يلبث أن أصلح التالف ، وأتقن الاصلاح ، وقنع راضيا بالأجر الحلال على ما عمل وما أصلح .
٦ ـــ أما بعد فهذا هو الضمير ، وهذه لمحة الى آثاره .
وهكذا تتكرر الأمثال فتتسع للناس جميعا ، ذكورا وأناثا ، رجالا ونساء ، فتيانا وفتيات ، وتسع أحوالهم جميعا فى وظائفهم وفى أعمالهم ، وفى معاملهم وفى مصانعهم ، وفى حقولهم وفى متاجرهم وفى مدارسهم وفى جامعاتهم وفى صلة كل منهم بنفسه وبأخيه وبالمجتمع الذى يعيش فيه .



للأستاذ : محمد ناصر الدين الألباني

ومن المشاهد حقا أن مثل هذا التعاون قائم الى حد كبير بين المتخصصين

واذا كان الأمر كذلك ، فمن الواجب حينئذ أن يستعين كل متخصص بعلم ما ، بعلوم غيره من ذوى التخصصات الأخرى حينما يكون هناك ارتباط وثيق بين علمه وعلومهم ، وذلك ليكون على ثقة فيما يذهب اليه من فهم أو يصدره من حكم .

لا يخفى على أهل العلم أن من الواجب اليوم على كل من يريد أن يستقل فى الفهم عن الله ورسوله ، ان يكون على علم بقسم كبير من العلوم التى تساعده على ذلك ، مثل أصول التفسير ، والفقه ، ومصطلح الحديث وما يتفرع منه من المعرفة بما صح من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لم يصح ، وأن يكون على جانب كبير من الثقافة والمعرفة باللغة العربية وآدابها .

بيد أن الواقع يشهد أن من النادر جدا ، أن يكون الفرد متمكنا فى كل علم من هذه العلوم وغيرها ، متقنا اياها ، كما لو كان متخصصا فى علم واحد منها ، ولذلك فان من البدهى أن نرى أهل العلم والعقل يتخصصون فى علم واحد أو اثنين ، مع المشاركة طبعا فى العلوم الأخرى الضرورية منها ، فكان فيهم المفسر والمحدث ، والفقيه والمؤرخ ، واللغوى والأديب وغيرهم ، مما هو معروف .

فى العلوم الشرعية ، فالمفسر مثلا يستعين بالمحدث واللغوى ، وهذا يستعين بالمفسر والمحدث ، وهذا يستعين باللغوى والفقيه ، وهذا يستعين بأولئك وغيرهم وهكذا ، فكل قد أخذ حظه من الأجر والفضل باستعانة غيره به ، والاستفادة من علمه وتخصصه .

غير أن أهل العلم بالحديث والتخصص منهم بالجرح والتعديل والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه ، من القدامى منهم والمحدثين ، كانوا أقل العلماء حظا فى الاستعانة بهم والاستفادة من علمهم ، لا سيما فى القرون المتأخرة كهذا الذى نحن فيه وما قبله من القرون الثلاثة بصورة خاصة ، فقد انصرف العلماء فضلا عن غيرهم عن العناية بهذا العلم وتدريسه دراسة تليق بجلاله وعظمته ، حتى فى المدارس الشرعية ، بل ان بعض المدارس التى كانت مخصصة لتدريس الحديث فيها فيما قبل ذلك من القرون صارت اليوم خرابا يبابا ، وبعضها تدرس فيها العلوم الشرعية ، وأما الحديث فدراسته رمزية ! ليس فى أساتذتها متخصص فى علم الحديث كدار الحديث بدمشق وغيرها ! .

ومن المعلوم أن علم الحديث النبوى هو أوسع العلوم الشرعية قاطبة وأغزرها فائدة ، وأكثرها اتصالا وارتباطا بالعلوم الأخرى ، فما من مفسر أو فقيه أو مؤرخ أو لغوى الا وهو بحاجة اليه ، والى الاستعانة بالمتخصص فيه ، والاعتماد عليه . ومع ذلك فالواقع أن القليل من المتخصصين فى العلوم الأخرى من استفاد من علمهم وتحقيقهم ، فكان من آثار ذلك انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتى لا أصل لها بين المسلمين الخاصة منهم والعامة لا أستثنى منهم خطيبا ولا مدرسا ، ولا واعظا ولا مرشدا ، ولا كاتبا ولا محاضرا ، الا من شاء الله وقليل ماهم . ذلك لأن ثقافتهم مستقاة من كتب — هى على اختلاف بحوثها ومواضيعها — جلها مشحونة بمثل تلك الأحاديث ، لم يلتزم من ألفها هذا النهج العلمى من الاستعانة بأهل التخصص والمعرفة بها .

فكم من عارف بعلم الكلام — ولا أقول علم التوحيد — أودع فى كتابه من الأحاديث هى عند أهل العلم موضوعة مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تستحق أن تذكر فى كتب الوعظ والتصوف والرقائق ، بله كتب العقائد والتوحيد والحقائق مثل حديث : (ان الله لما خلق العقل قال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أشرف منك ، فبك آخذ ، وبك أعطى) (١) .

وكم من ماهر فى علم أصول الفقه أقام أصلا ، أو قعد قاعدة على أساس حديث منكر أو موضوع عند المحققين كحديث معاذ : (بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ..) الحديث (٢) و (اختلاف أمتى رحمة) (٣) .

بل وكم من محدث مكثر حافظ ، يحتج بأحاديث فى الأحكام وغيرها من

---

(١) انظر المقاصد الحسنة (رقم ٢٣٣) و (كشف الخفا) (رقم ٧٢٣) .

(٢) تكلمت عليه فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة) ولما ينشر بعد ومحله منها قبيل المائة التاسعة .

(٣) انظر فى السلسلة المذكورة برقم (٥٧) .

أبواب الشريعة هى — عند ذوى التخصص منهم بالجرح والتعديل والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه — أما ضعيفه أو موضوعه ، فالأحاديث التى يصححها الحاكم وغيره من المتساهلين . (!)

وكم من مفسر بارع تأول آية ، أو ذكر سبب نزولها أو ساق قصة متعلقة بها ، أو لمناسبة ما ، اعتمادا على حديث لم يتثبت من صحته ، هو عند أهله العارفين به ضعيف وموضوع ، مثل حديث قصة الملكين هاروت وماروت ، وارتكابهما عدة فواحش !(٤) ، وحديث قصة الغرانيق وأن الشيطان تكلم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم بآية مدح بها آلهة المشركين : (تلك الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لترتجى) ! ولنا فى بيان ضعفه وبطلانه رسالة بعنوان : (نصب المجانيق ، لنسف قصة الغرانيق) وهى معروفة(٥) .

وكم من فقيه جامع أوجب على الناس ما ليس بواجب . أو أسقط عنهم ما هو واجب ، أو حرم عليهم ، ما ليس بحرام ، وأحل لهم ما ليس بحلال أو أبطل عليهم عبادة صحيحة ، أو صحح لهم عبادة باطلة ، أو سفك دما محرما ، وحرم دما مهدورا ، أو شرع لهم عبادة ليست مشروعة . كل ذلك لم يكن منهم عن هوى أو غرض ، حاشاهم ، وانما كان اعتمادا منهم على أحاديث توهموها ثابتة ، وليست كذلك ، ولو أنهم رجعوا الى أهل التخصص والمعرفة بالحديث لعلموا أنها ضعيفة أو موضوعة ، لا يجوز تشريع شىء ما بها ، ولو فى حدود الندب والاستحباب ، فكيف فى التحريم والتحليل ، والابطال والايجاب ؟ ! والأمثلة على ماذكرت كثيرة جدا تبلغ المئات بل الألوف .

وأما الصوفية وأمثالهم ممن ألف فى علوم الدين ، والأخلاق ، والآداب والمواعظ ، فحدث عن أحاديثهم ، وما وقع فيها من الأباطيل ولا حرج وحسبك أن تطلع على كتاب (المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار) للحافظ زين الدين العراقى ، انك ان فعلت ذلك فسترى ما هو أعجب وأعجب !! .

ولما كنا على أبواب حركة علمية واسعة النطاق ، فى شتى أنواع العلوم ومنها الفقه والتشريع الاسلامى ، كان طبيعيا جدا أن يكتب كثير من العلماء والكتاب فى مواضيع معينة من أبواب الفقه ، وخصوصا ما كان منها متعلقا بالحقوق والقانون والاجتماع والاقتصاد .. وتلقى محاضرات كثيرة فى مثل هذه المواضيع ، وبعضهم شرع فى تأليف كتب خاصة فى الفقه الاسلامى أو فقه السنة جامعا لجميع أو أكثر الأبواب الفقهية التى يحتاجها المسلم مبتدئين بـ (كتاب الطهارة) ، ثم (الصلاة) ، ثم (الزكاة) وهكذا الى آخر الكتب التى جرى الفقهاء قديما على نسقها .

ولكنى رأيت أكثر هؤلاء العلماء والكتاب والمحاضرين ، قد سرت اليهم عدوى من قبلهم من الفقهاء من ترك الاستعانة بأهل التخصص والمعرفة بالحديث ، فلا تكاد تجد حديثا واحدا فى كل ما يكتبون من البحوث الخطيرة مخرجا مصححا أو مضعفا على طريقة أهل الحديث ، اللهم الا قليلا منهم ، وخيرهم صنعا من يقول : (رواه فلان) ثم يسكت ، ولا يبين درجته من الصحة أو الضعف ، وهو قد

---

(٤) قد بينت بطلانها وأنها من الاسرائيليات فى السلسلة المتقدمة ، فمن شاء الاطلاع فليرجع اليها رقم ١٧٠ .

(٥) قام بطبعها المكتب الاسلامى بدمشق لصاحبه الأخ زهير شاويش .

يكون موضوعا مكذوبا عند أهل الحديث ! وقد أقام عليه من أشرنا اليهم علالى وقصورا » .

واليك بعض الأمثلة :

١ ـ قال بعض الأفاضل ممن ألف فى فقه السنة :

« يحرم على الجنب أن يمكث فى المسجد لحديث عائشة قالت : (جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجوه بيوت أصحابه شارعة فى المسجد فقال : وجهوا هذه البيوت عن المسجد .. فانى لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب » . رواه ابو داود . وعن أم سلمة قالت : (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم صرحة هذا المسجد فنادى بأعلى صوته : ان المسجد لا يحل لحائض ولا لجنب) رواه ابن ماجه والطبرانى .

أقول : فقد حرم المكث فى المسجد بناء على هذا الحديث ، وأنا أعلم انه ليس هو أول من فعل ذلك بل هو مقلد لبعض من سبق من الفقهاء ، وما أوقعه فى ذلك الاعدم رجوعه الى أهل التخصص فى الحديث . ولو صنع لوجد قول البيهقى : (ليس بقوى) . وقول عبد الحق الاشبيلى : (لا يثبت) وقول الخطابى : (ضعفه جماعة) . ذكر هذا الامام النووى فى المجموع (شرح المهذب) (٢/١٦٠) .

ثم انه لو رجع الى مصدر الحديث مباشرة ألا وهو أبو داود وابن ماجه ، وكان من أهل العلم بتراجم الرواة وأحوالهم ، لوجد أن مدار الحديث على جسرة بنت دجاجة ، وقد قال البخارى فيها : (عندها عجائب) ! ولما وقع فى هذا الايهام الفاحش وهو أن للحديث طريقين : أحدهما عن عائشة ، والآخر عن أم سلمة ، وحقيقة الأمر أن الطريق واحدة مدارها على جسرة هذه كما أشرت اليه آنفا ، غاية ما فى الأمر ، أن بعض الرواة اختلفوا فى اسناده عن جسرة . فقال أحدهم : عنها عن عائشة . وقال آخر : عنها عن أم سلمة . فيتوهم من لم يرجع فى الحديث الى الأصول والأمهات أن للحديث طريقين زد على ذلك أن هذا الاختلاف يعتبر عند أهل الحديث اضطرابا يزيد الحديث ضعفا على ضعف ، فكيف يجوز لعالم أن يحرم بمثله شيئا ؟ ! .

وليس غرضى الآن تحقيق القول والافاضة فى بيان ضعف الحديث وما قيل فيه ، .

٢ ـ وقال آخر من الأفاضل المشهورين والعلماء البارزين فى رسالة له فى (الحقوق العامة لأهل الذمة) :

(دم الذمى كدم المسلم ، فان قتل مسلم أحدا من أهل الذمة اقتص منه له ، كما لو قتل مسلما) .

ثم استدل على ذلك بحديث ابن عمر عند الدارقطنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل مسلما بمعاهد وقال : أنا أكرم (وفى رواية : أحق) من وفى بذمته (٧) .

مع أن هذا الحديث عند أهل المعرفة به ضعيف دون أى اختلاف بينهم ،

---

(٦) انظر (فقه السنة) للسيد سابق (ص ١١٧ ـ ١١٨) الطبعة الأولى .

(٧) انظر كتاب (نظرية الاسلام وهديه) ص ٣٤١ للأستاذ المود ودى .

فقد ضعفه الطحاوى والدارقطنى والبيهقى ونقل عن الامام صالح بن محمد الحافظ أنه قال : (هو مرسل منكر) .

ولو أن الفاضل المشار اليه استخرج الحديث بنفسه من (سنن الدارقطنى) لوجد كلام الدارقطنى عقبه صريحا فى تضعيفه اياه ، وذلك قوله (ص٣٤٥) : (لم يسنده غير ابراهيم بن ابى يحيى ، وهو متروك الحديث ، والصواب عن ربيعة عن ابن البيلمانى مرسل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وابن البيلمانى ضعيف لا تقوم به حجة اذا وصل الحديث ، فكيف بما يرسله ؟ !) ..

وقد فصلت القول على هذا الحديث وذكرت طرقه وعللها ونصوص أهل العلم فى تضعيفه فى الجزء الخامس من « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » رقم (٤٦٠) ، .

٣ ــ وقال ثالث فى (بحث الدور الفقهى الأول : عصر النبوة) ، وقد ذكر طائفة من الأحاديث كأمثلة لجملة من الأصول والقواعد الكلية التى تركها صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم ، منها حديث : (الشفعة كحل العقال) ثم قال الفاضل المشار اليه : (فهذا الحديث مثلا يصلح أساسا لفكرة مرور الزمن ، وتحديد المدد للمطالبة ببعض الحقوق ، ولاستعمال بعض الخيارات كخيار الرؤية والعيب ، و ..) (٨) .

فلو أن المذكور رجع الى بعض المتخصصين فى الحديث والعارفين بصحيحه وضعيفه ، لما جزم بنسبته الى النبى صلى الله عليه وسلم ولما اتخذه مثلا للفكرة الذى ذكرها ، فقد قال أبو زرعة (حديث منكر) وقال ابن حبان : (لا أصل له)

وأورده البيهقى فى (السنن الكبرى) (١٠٨/٦) فى جملة أحاديث ساقها بأسانيدها فى : (باب رواية ألفاظ منكرة يذكرها بعض الفقهاء فى مسائل الشفعة) ! .

٤ ــ حديث (أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى أهل الذمة : لهم مالنا وعليهم ما علينا) .

لقد اعتدنا ان نسمع هذا الحديث من كثير من خطبائنا ومرشدينا ومحاضرينا ، وهم يتكلمون عن حقوق أهل الذمة فى الاسلام ، جازمين بنسبته الى النبى عليه الصلاة والسلام ، حتى أصبح ذلك عقيدة راسخة فى قلوب كثير من الدعاة المعروفين بالاصلاح والتجديد ، فضلا عن غيرهم من المسلمين الصالحين ، فهذا أحد دعاتهم يصرح بمعنى ذلك فى بيان أذاعه على الناس بمناسبة الجدل الذى قام حول محاولة بعض اخواننا الاسلاميين لادخال دين الدولة الاسلام ، فى دستور سنة ١٩٥٠ فقال : (المواطنون متساوون فى الحقوق ، لا يحال بين مواطن وبين الوصول الى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة) . يشير بهذا الكلام الى هذا الحديث ، والحديث المتقدم برقم (٢) .

والواقع أن هذا الحديث لا أصل له عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا السياق الذى اعتادوا ذكره ، وانما أورده هكذا بعض الفقهاء الذين لا علم عندهم بالسنن ، فقاده من أشرنا اليهم ، ثم أذاعوا الحديث على الناس ونشروه بينهم

---

(٨) انظر كتاب (المدخل الفقهى العام الى الحقوق المدنية فى البلاد السورية) (١/٦٧و٦٨) الأستاذ الفاضل مصطفى الزرقا .

كتابة ووعظا ، دون أن يحاولوا الرجوع به الى ذوى التخصص فى الحديث ليكونوا على بينة من أمره ، ولا ينسبوا الى النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس من حديثه ، بل هو معارض له أشد المعارضة ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه قال هذه الجملة : (لهم مالنا وعليهم ما علينا) فى الذين يسلمون من المشركين ، ورد ذلك عنه صلى الله عليه وسلم من حديث بريدة بن الحصيب وسلمان الفارسى وغيرهما ،) .

٥ ــ حديث (اذا صعد الخطيب المنبر ، فلا صلاة ولا كلام) .

وهو حديث متداول على ألسنة بعض الفقهاء ومسطور فى غير ما كتاب فقهى ، واشتهر على ألسنة الناس حتى توجت به بعض المنابر فى بلادنا الشامية ، ولا أصل له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ ، بل ان معناه مخالف لبعض الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم : (اذا جاء أحدكم يوم الجمعة والامام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما) أخرجه الامام مسلم وغيره ..

وقد بينت حال هذا الحديث ، وما قاله أهل العلم فيه فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة) (رقم ٨٧) فليراجعه من شاء التحقيق ، .

ومن الأمثلة المتقدمة ــ وهى غيض من فيض ــ يتبين لكل عاقل أن الأحاديث الضعيفة مع الجهل بها هى من أكبر العوامل ــ ان لم أقل : هى أكبرها اطلاقا ــ على حمل بعض المسلمين على الانحراف عن دينهم ، انحرافا أعتقد أنه أخطر ما أصيب به المسلمون من الانحرافات الكثيرة ، ذلك لأنهم فى اتباعهم اياها ، وتمسكهم بها ، يظنون أنهم انما يتبعون كلام من أوجب الله عليهم اتباعه ، والتسليم لكلامه ، ووصفه بقوله : (وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى) ، وصدق الله ، وأخطأ أولئك حين استسلموا لكل ما ينسب اليه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث ، ولم يتحروا ما صح منها مما لم يصح ، مع علمهم ويقينهم بانه ليس كل ما يعزى اليه صلى الله عليه وسلم من الحديث صحيح ثابت عنه ، فكان المفروض أن يكون هذا وحده كافيا ليحملهم على البحث والتنقيب وتتطلب الحديث الصحيح ، فكيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم فيما صح عنه أن بعض الناس سيكذبون عليه ، فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (ان كذبا على ، ليس ككذب على أحد ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) رواه مسلم من حديث المغيرة رضى الله عنه ، ثم حذرهم صلى الله عليه وسلم من الاغترار بهؤلاء الكذابين والاعتماد على حديثهم فقال صلى الله عليه وسلم : « يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم) . رواه مسلم أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ..

وان من حرصه صلى الله عليه وسلم على حديثه ، وسلامته من أن يلوث بأحاديث الكذابين عليه أنه اعتبر الذين يروجون الأحاديث دون أن يتثبتوا من صحة نسبتها اليه صلى الله عليه وسلم فى حكم الكاذبين عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : (من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين) . وقال صلى الله عليه وسلم : (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع) . رواهما مسلم . وروى عن الامام مالك رحمه الله انه قال لابن وهب : (اعلم انه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع ، ولا يكون اماما أبدا وهو يحدث بكل ما سمع) .

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال : (لا يكون الرجل اماما يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع) .

ولذلك اتفق العلماء على أنه لا يجوز الاحتجاج بالحديث الضعيف فى الاحكام (٩) ا فضلا عن العقائد ، ذلك لأن الحديث الضعيف لا يفيد الا الظن المرجوح والأخذ به مذموم بنص الكتاب والسنة ، فقال تعالى : (ان الظن لا يغنى من الحق شيئا) وقال صلى الله عليه وسلم : (اياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث) متفق عليه . وفى حديث آخر : (اتقوا الحديث عنى الا ما علمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) (١٠) .

واذا كان الأمر كذلك ، فكان الواجب على الفقهاء الذين هم المرجع لعامة الناس فى التعرف على أحكام الشريعة مفصلا أن يكونوا أبعد الناس عن مخالفة هذه النصوص ، ومناقضة ذلك الاتفاق الذى انعقد بأمثالهم من العلماء الذين قالوا به ذلك ما يقتضيه حسن الظن بهم وجلالة قدرهم .

ولكن الواقع يشهد — والأسف يملأ قلبى — أن جمهورهم على اختلاف مذاهبهم ، قد امتلأت كتبهم بمئات الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، التى رتبوا عليها أحكاما شرعية كثيرة على اختلاف أنواعها وخطورتها ، مما سبق تفصيل القول فى بعضها والتمثيل لها بأحاديث هم مصدرها والمستدلون بها ، تبعهم على ذلك بعض المعاصرين ! .

وهذا أمر يشهد به كل من له معرفة بعلم الحديث ، وله اطلاع لا بأس به على الكتب الفقهية المبسوطة فى المذاهب الأربعة ، ومن أجل ذلك وضع جماعة من أئمة الحديث على بعض الأمهات منها كتب التجريحات المعروفه (١١) . وألف ابن الجوزى الحنبلى كتابه (التحقيق فى مسائل التعليق) وذكر فى مقدمته الحامل له على تأليفه فقال : (كان السبب فى اثارة العزم لتصنيف هذا الكتاب أن جماعة من اخوانى ومشايخى فى الفقه ، كانوا يسألونى فى زمن الصبى جمع أحاديث التعليق ، وبيان ما صح منها ، وما طعن فيه ، وكنت أتوانى عن هذا لسببين :

احدهما : اشتغالى بالطلب .

والثانى : ظنى أن مافى التعاليق من ذلك يكفى ، فلما نظرت فى التعاليق رأيت بضاعة أكثر الفقهاء فى الحديث مزجاة ، يعول أكثرهم على أحاديث لاتصح ، ويعرض عن الصحاح ويقلد بعضهم بعضا فيما ينقل . ثم قد انقسم المتأخرون ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قوم غلب عليهم الكسل ، ورأوا أن فى البحث تعبا ، وكلفة ، فتعجلوا الراحة ، واقتنعوا بما سطره غيرهم .

والقسم الثانى : قوم لم يهتدوا الى أمكنة الأحاديث ، وعلموا أن لا بد من سؤال من يعلم هذا ، فاستنكفوا عن ذلك ! .

والقسم الثالث : قوم مقصودهم التوسع فى الكلام طلبا للتقدم والرياسة ،

---

(٩) انظر (المجموع شرح المهذب) للامام النووى (٥٩/١) و (الاجوبة الفاضلة) لابى الحسنات للكنوى ص (٥٦) .

(١٠) انظر مقدمة (صفة الصلاة ص ٧ الطبعة الثالثة) .

(١١) انظر مقدمة (صفة صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ص ٤ — ٥) و (الرسالة المستطرفه للكتانى (ص ١٤١ — ١٤٢) .

واشتغالهم بالجدل والقياس ، والالتفات لهم الى الحديث لا الى تصحيحه ، ولا الى الطعن فيه .

وليس هذا شأن من استظهر لدينه ، وطلب الوثيقة فى أمره .

ولقد رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول فى تصنيفه عن ألفاظ قد أخرجت فى الصحاح : (لا يجوز أن يكون رسول الله صـــلى الله عليه وسلم قال هذه الألفاظ) ! ويرد الحديث الصحيح ، ويقول : (هذا لا يعرف) ! وانما هو لا يعرفه ، ثم رأيته قد استدل بحديث زعم أن البخارى أخرجه : وليس كذلك ثم نقله عن مصنف آخر كما قال تقليدا له ، ثم استدل فى مســألة فقال : (دليلنا ما روى بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كذا) ! ورأيت مشايخنا يقولون فى تصانيفهم : « دليلنا ماروى أبو بكر الخلال باسناده عن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم » ، و « دليلنا ماروى أبو بكر عبد العزيز باسناده » .

و « دليلنا ما روى ابن بطه باســـناده » ، وجمهـــور تلك الأحـــاديث فى (الصحاح) ، وفى (المسند) وفى (السنن) غير أن السبب فى اقتناعهم بهذا ، التكاسل عن البحث . والعجب ممن ليس له شغل سوى مسائل الخلاف ، ثم قد اقتصر منها فى المناظرة على خمسين مسألة ، وجمهور هذه الخمسين لا يستدل فيها بحديث ! فما قدر الباقى حتى يتكاسل عن المبالغة فى معرفته ؟ ! .

وألوم عندى ممن قدمته من الفقهاء ، جمـــاعة من كبار المحـــدثين عرفوا صحيح النقل وسقيمه ، وصنفوا فى ذلك ، فاذا جاء حديث ضـــعيف يخـــالف مذهبهم بينوا وجه الطعن فيه ، وان كان موافقا لمذهبهم سكتوا عن الطعن فيه . وهذا ينبىء عن قلة دين ، وغلبة هوى (ثم روى بسنده عن الدارقطنى وهـــــذا بسنده عن وكيع أنه قال) : أهل العلم يكتبون مالهم وما عليهم ، وأهل الأهـــواء لا يكتبون الا مالهم)(١٢) .

قلت : ومن المؤســـف أن الوصـــف الذى ذكره ابن الجوزى ينطبق تماما على رجلـــين كبيرين ، أحدهما شـــافعى المذهب وهو الامام البيهقى ، والآخر حنفيه وهو علاء الدين ابن التركمانى ، وذلك ظاهر فى كتاب الأول منهما (السنن الكبرى) ، وفى كتاب الآخر (الجوهر النقى فى الرد على البيهقى) . بل ان ابن الجوزى نفسه لم ينج من هذا البلاء ، .

وأعتقد أن السبب فى ذلك ، انما هو التعصب لمذهب معين ، فذلك هو الذى يحمل البعض على السكوت عن الحديث الضعيف اذا كان له . ويسارع الى الكشف عن علته اذا كان عليه ، بل ان بعضهم ، قد يصحح الضعيف ، ويضعف الصحيح حمية لمذهبه ، . فلو لم يكن للتعصـــب من شـــؤم الا هذا لكفى . . . فالحمد لله الذى عافانا من العصبية المذهبية ، ورزقنا التمسك بالسنة المحمدية فقط دون غيرها . .

قال شيخ الاســـلام ابن تيمية فى (منهـــاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية) (ج ٤ ص ١٠) :

(قاعدة : المنقولات فيها كثير من الصدق ، وكثير من الكذب ، والمرجع فى التمييز بين هذا وهذا ، الى علم الحديث ، كما نرجع الى النحاة فى الفرق بين

---

(١٢) رواه الدارقطنى فى سننه ص ١٠ ، وفيه ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن ســـالم السلولى أبو ســـالم عن أبيه عن وكيع ، ولم أر من ترجمـــه هو وأبوه ، وقع فى (التحقيق) (السكونى) بدل (السلولى) ، ولم يورده السمعانى فيهما .

نحو العرب ، ونحو غير العرب ، ونرجـــع الى علماء اللغة فيما هو من اللغة ، وما ليس من اللغة ، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجال يعرفون به ، والعلماء بالحديث أجل قدرا من هؤلاء ، وأعظمهم صدقا ، وأعلاهم منزلة ، وأكثر دينا ، وهم من أعظم الناس صـــدقا وأمانة وعلمـــا وخبرة فيما يذكرونه من الجرح والتعديل ، مثل مالك وشعبة وسفيان ويحيى بن سعيد والشافعى وأحمد . . و . . البخارى ومسلم وأبى داود . . . . وابن عدى وأبى حاتم البستى والدارقطنى وأمثال هؤلاء خلق كثيـــر لا يحصى عـــددهم من أهـــل العلم بالرجـــال والجرح والتعديل ، وان كان بعضـــهم أعلم بذلك من بعض ، وبعضهم أعدل من بعض فى وزن كلامه كما أن الناس فى سائر العلوم كذلك . (قال :) وهذا علم عظيم من أعظم علوم الاسلام . (قال ص ١١) : « والاسناد من خصائص هذه الأمة ، وهو من خصائص الاسلام ، ثم هو فى الاســـلام من خصائص أهل السنة) ثم قال (ص ١٢) :

« فالأصل فى النقل أن يرجع فيه الى أئمة النقل وعلمائه ، ومن يشركهم فى علمهم ، وأن يستدل على الصحة والضعف بدليل مفصل عن الرواية فلا بد من هذا وهذا ، والا فمجرد قول القائل : » رواه فلان « لا يحتج به ، لا أهـــل السنة ؟ ولا الشـــيعة ، وليس فى المسلمين من يحتج بـــكل حديث رواه كل مصنف » ثم قال فى فصل آخر (١١٥/٤) :

« وقد يكون الرجل صـــادقا كثير الحديث ، كثير الرواية فيه ، لكن ليس من أهل العناية بصحيحه وسقيمه ، فهذا يستفاد منه نقله ، فانه صادق ضابط ، وأما المعرفة بصحيحه وسقيمه ، فهذا علم آخر ، وقد يكون مع ذلك فقيها مجتهدا، وقد يكون صالحا من خيار المســـلمين ، وليس له كثير معرفة ، لكن هؤلاء وان تفاضلوا فى العلم ، فلا يروج عليهم من الكذب ما يروج على من لم يكن له علم ، فكل من كان بالرسول أعرف ، كان تمييزه بين الصدق والكذب أتم . فقد يروج على أهل التفسير والفقه والزهد والنظر أحاديث كثيرة ، اما يصـــدقون بها ، واما يجوزون صدقها ، وتكون معلومة الكذب عند علماء الحديث ، وقد يصدق بعض هؤلاء بما يكون كذبا عند أهل المعرفة مثل ما يروى طائفة من الفقهـــاء ، حديث : (لا تفعلـــى يا حميراء فانه يورث البرص) وحـــديث (زكـــاة الأرض يبسها .) وحديث . . وحديث . . الى أمثال ذلك من الأحاديث التى يصـــدق بعضـــها طائفة من الفقهاء ، ويبنون عليهـــا الحـــلال والحرام ، وأهـــل العلم بالحديث متفقون على أنها كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موضوعة ، وكذلك أهل العلم من الفقهاء يعلمون ذلك » .

وقال العـــلامة محمد بن عبد الهادى بعد أن نقل قول ابن تيمية : « فقد يروج . . . » . :

« وهذه الأحاديـــث التى ذكرها ، منها مالا يعرف له اســـناد ولا أصـــل كحديث : « زكاة الأرض يبسها » ومنها ما هو موضوع ، وما هو ضعيف الاسناد كحـــديث « لا تفعلى يا حميراء » رواه الدارقطنى وابن عدى وغيرهمـــا وهو موضوع ، وحديث « نهى عن بيع وشرط » رواه البيهقى باسناد ضعيف . . » ثم قال ابن عبد الهادى : « ويشبه ما ذكره شيخنا من هذه الأحاديث ما يذكره بعض الفقهاء والأصوليين ، أو المحدثين محتجا به أو غير محتج به ، مما ليس له اسناد ، أو اسناد ، ولا يحتج بمثله النقاد من أهل العلم كحديث (النهى عن بيع الكالىء بالكالىء) وحديث . . و حديث . . » . ثم ختم ذلك بقوله .

« واعلم أن غالب هذه الأحاديث مروية بالأسـانيد ، ومنهـا ما لا يعرف له اسناد أصلا ، وهى على أقسام : فمنها ما هو موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيقين ، ومنها ما يشك فى وضعه ، ومنها ما اسناده ضعيف ، ومنها ما قد يحسنه بعض الأئمة ، والله الموفق للصواب) (١٣) .

وقال العلامة ابن الحسنات اللكنوى فى (الأجوبة الفاضلة) (ص٢٩ــ٣٠) بعد أن ذكر أصـنافا من الوضاعين ، منهم من وضعوا أحاديث فى الأحكـام ، وتقولوا بالحلال والحرام :

ومن هنا نصوا على أنه لا عبرة للأحاديث المنقولة فى الكتب المبسوطة ما لم يظهر سندها ، أو يعلم اعتماد ارباب ــ الحديث عليها ، وان كان مصنفها فقيها جليلا ، يعتمد عليه فى نقل الأحكام ، وحكم الحلال والحرام ، الا ترى الى صاحب (الهداية) من أجلة الحنفية ، والرافعى شارح الوجيز من أجلة الشافعية ــ مع كونهما ممن يشار اليه بالأنامل ، ويعتمد عليه الأماجد والأماثل ــ قد ذكرا فى تصانيفهما مالا يوجد له أثر عند خبير بالحديث يستفسر ، كما لا يخفى على من طالع (تخريج أحاديث الهداية) للزيلعى ، و « تخريج أحاديث شرح الرافعى » لابن حجر العسقلانى . واذا كان حال هؤلاء الأجلة هذا ، فما بالك بغيرهم من الفقهاء الذين يتساهلون فى ايراد الأخبار ، ولا يتعمقون فى سند الآثار ؟

ولذا قال على القارى فى (رسالة الموضوعات) : حديث « من قضى صلاة من الفرائض فى آخر حجته من رمضان كان ذلك جابرا لكل صلاة فاتته فى عمره الى سـبعين سنة » باطل قطعا ، ولا عبرة بنقل صـاحب (النهاية) ، وغيره من بقية شراح (الهداية) فانهم ليسوا من المحدثين ، ولا أسندوا الحديث الى أحد من المخرجين . انتهى .

وقال السيوطى فى (مرقاة الصـعود الى سنن ابى داود) تحت حديث (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتمشط أحدنا كل يوم : (فان قلت : نقل أنه صلى الله عليه وسلم « كان يسرح لحيته كل يوم مرتين » قلت : لم أقف على هذا باسناد ، ولم أر من ذكره الا الغزالى فى (الأحياء) ولا يخفى ما فيه من الأحاديث التى لا أصل لها انتهى .

وقال اللكنوى فى كتابه الآخر (النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير) (ص ١٢٢ ــ ١٢٣) بعد أن ذكر مراتب كتب الفقه الحنفى ، وما يعتمد عليـه منها وما لا يعتمد :

« كل ما ذكرنا من ترتيب المصنفات ، انما هو بحسب المسائل الفقهية وأما بحسب ما فيها من الأحاديث النبوية فلا ، فكم من كتاب معتمد ، اعتمد عليه أجلة الفقهاء مملوء من الأحاديث الموضوعة ، ولا سيما الفتاوى ، فقد وضح لنا بتوسيع النظر ، أن أصـحابها وان كانوا من الكاملين ، لكنهـم فى نقل الأخبـار من المتساهلين » .

ثم قال اللكنوى فى الكتـاب الأول (ص ٣٥) : « فان قلت : فمـا بالهم أوردوا فى تصانيفهم الأحاديث الموضوعة مع جلالتهم ونباهتهم ؟ ولم لم ينقدوا الأسانيد مع سعة علمهم ؟ قلت : لم يوردوا ما أوردوا مع العلم بكونه موضوعا ،

---

(١٣) نقلته من مجموع بخط محمد بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن زريق ، فيه عدة كتب منها فصل قال : رأيته بخط الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الهادى رحمه الله تعالى فى أثناء كلام له وهو محفوظ فى المكتبة الظاهرية برقم (٤٠٥ حديث) .

بل ظنوه مرويا ، وأحالوا نقد الأسانيد على نقاد الحديث ، لكونهم أغنوهم عن الكشف الحثيث ، اذ ليس من وظيفتهم البحث عن كيفية رواية الأخبار ، انما هو من وظيفة حملة الآثار ، فلكل مقام مقال ، ولكل فن رجال » .

قلت: وفى جوابه رحمه الله نظر كبير وتسامح ظاهر ، فان كون نقد الاحاديث ليس من وظيفة الفقهاء ، فذلك لا يسوغ لهم مطلقا أن يوردوها محتجين بها ، ومؤيدين بها مئات الفروع المذهبية ، وهذا معناه أحد شيئين :

اما أنهم يرون صحتها ، فلذلك احتجوا بها ، وهذا بعيد لأن شهادة الأئمة المتخصصين ترد ذلك .

واما انهم لا يعلمون صحتها ومع ذلك استدلوا بها ، وهذا هو الذى نعتقده ، وهم على هذا متساهلون كما صرح اللكنوى فيما تقدم ، فلعل الله عز وجل يغفر ذلك لهم لخدمتهم للشرع بعلم الفقه ، وان كان تساهلهم هذا له آثاره السيئة من نشر الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين طلاب الفقه ، حتى صار من الصعب اقناعهم بضعفها وصرفهم عنها الى الأحاديث الصحيحة لثقتهم العمياء بمن أوردها من الفقهاء ، وتوهمهم أنهم كانوا على معرفة تامة بالأحاديث صحيحهاوسقيمها وانهم لم يوردوا الا ماصح منها !، ويصرح بعض غلاتهم بقولهم: « كل فقيه محدث ، وليس كل محدث فقيها » وجهلوا أو تجاهلوا قول الرجل الحكيم : (ولكل فن رجال) .

ونحن بعد هذا ، لا نريد من فقهائنا اليوم ، أن يصير كل واحد منهم محدثا ، الى جانب كونه فقيها ، يستطيع حين يتطلب الأمر أن يستخرج الحديث من مصادره وأصوله القريبة منها والبعيدة ، وأن يحكم عليه بالصحة أو الضعف ، ليس ذلك تقليدا منه لغيره ، بل بدراسته بنفسه لاسناده ، وبمعرفته لرواته ، وتتبعه لعلله ، كلا لا نريد منهم هذا ، فانه شيء صعب حقا ، ولم لا ؟ وأكثرهم لم يدرسوا من علم الحديث الا ما يعرف اليوم ب (مصطلح الحديث) دراسة سطحية نظرية لم يقترن منها تطبيق عملى ، على نحو دراستهم سائر العلوم الأخرى مثل (الفيزياء) و (الكيمياء) وغيرها من العلوم التى اذا لم ينضم اليها دراسة تطبيقية ، فسرعان ما ستتبخر من اذهانهم بعد انتهائهم من الدراسة وحصولهم على الشهادة !

وانما نريد من فقهائنا اليوم شيئا وهو سهل على من سهل الله له :أن يعتبروا بصنيع من قبلهم ، فلا يحتجوا بالأحاديث الضعيفة لاثبات أى حكم شرعى وأن يتعرفوا عليها بالرجوع الى أهل التخصص والمعرفة بها من المحدثين ، وهؤلاء لهم كتب كثيرة معروفة فى تخريج بعض الكتب الفقهية ، ولهم كتب أخرى متنوعة تساعد الفقهاء على تمييز الحديث الصحيح من الضعيف وبذلك يصح اعتبارهم ويكون فقههم نافعا صالحا مشكورا .

---

(١٤) للشيخ الفاضل عبد الوهاب عبد اللطيف المدرس بكلية الشريعة فى الأزهر مقدمة على (المقاصد الحسنة) وأخرى على (تنزيه الشريعة) كاد أن يحيط فيها بالكتب المؤلفة فى الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والمشتهرة على الألسنة ، مع التنبيه على المطبوع منها ، فليرجع اليهما .

نداء

يا رفيقاً أعطى الحياةَ كَثيرًا — جَدِّد العزمَ لا تملَّ المسيرًا

أنت ما زلت سيداً وستبقى — سيِّدَ الكَون أولا وأخيرًا

أنت أنت الذى أقام وأرسى — دولة الحق عزةً وضميرًا

فاستحالت ناراً على كل باغٍ — أكلته وأصبح الكونُ نورًا

أنت من دوَّخ الطغاةَ فعادت — هجماتُ التَّتار تبكى المصيرًا

أنت من رَّغ الغزاةَ فأمسى — في يَدَيْك الطاغوتُ عبدًا أسِيرًا

ياحفيداً لخالدٍ ولعمروٍ — وصلاحٍ مازلت نصرًا كَبِيرًا

★ ★ ★ ★

يارفيقاً أعطى الحياة كثيرا — جَدِّد العزمَ لا تملَّ المسيرًا

أنت روح الحياة قيثارَ حُبٍّ — يهب اللَّحْنَ والهُدَى والعَبيرًا

لا تخَاذلْ فالطَّبلُ أجوف يُدَوِّى — مِن فراغٍ ويستَطِيلُ غُرُورًا

واللَّهيبُ الّذى تراه صِيَاحٌ — رَاعبٌ حاقِدٌ يفحُّ سَعِيرًا

هُـو يخشى مصيرَه حيث ينها .... رُ ويَهوى أرضا رَماداً حَقِيرًا

إنَّ تلكَ الأمواجَ يقذفُها الريـ — ـحُ ويمضى مُقَهْقِهاً مذعُورًا

للأستاذ : بكر موسى

حيثُ يمتصُه الفضاءُ وتُدمى ... جبهةَ البحرحين تَلقى الصُّخُورَا
والبراكينُ لعنةُ الكَبْتِ تَقْضِي ... نَحْبَها ذلةً تمنى الُمجِـــيرَا
إنهــا رعـدَة الشِّتاءِ ضَبَابٌ ... يتعالى وَيَنْتَهى زَمْهَريـــرَا
وخريفٌ من الرُّعُونةِ يعـــدُو ... ساكبـاً دَمْعَه غَزيراً غَزيرَا
ذَاكَ صوتُ الضَّلالِ مهما تعالىَ ... باهِتَ اللَّحنِ لاَ يمسُّ الشُّعُورَا
صرخَةٌ مالهَـا صـدًى وصُرَاخٌ ... لاَغِبُ الخَطْـولم يُحرِّك ضَمِيرَا

* * * *

يَارَفيقاً أعطَى الحيـاةَ كثيرَا ... جَدِّدِ العَزْمَ لاتمــلَّ المَسِيرَا
أنت تحيا لِلحقِ ، والحقُ يَمضِي ... واثقَ الخَطـو ناصراً مَنْصُورَا
وَطَريقُ الأحرار شَوكٌ ولمَّا ... يَجِدِ الحُرُّ فِي الدُّروبِ زُهُورَا
يَاأَخِي لا تَقُلْ هـزِمْنَا فَنصرُ الْمُـــؤمِنِ الحَق قَدْ يَكُونُ أَخِـيرَا
فشلُ الخَصْمِ أن يَرَاكَ قويَّـا ... مُستَمِيتاً عَلى البَـــلاءِ صَبُورَا
إنَّهـا محِنـةٌ يَطُولُ مَـــدَاهَا ... فَتَجَلَّـدْ تَلْقَ العَسِيرَ يَسِيرَا
ربَّ ضُرٍّ تَضِيقُ منهُ طَويـــلاَ ... يجعلُ اللهُ فيه خَيراً كَثـــيرَا
والحياةُ الحياةُ عزمٌ وحَـــزْمٌ ... فَتَقَدَّمْ ولاَ تملَّ المَسِـيرَا

المعتدون على

الفقه الإسلامي

للدكتور : وهبة الزحيلي

الاسلام النظام القائم بذاته المستقل عن أى تشريع آخر : لا يعرف منطقة ولا تقبل صراحته الا تصنيف الناس الى فريقين : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فريق المتقين المؤمنين الأخيار ، وفريق العصاة والكفار والمنافقين والأشرار .

والفريق الثانى لا خطورة فكرية منه على الاسلام ، لأنه يكره المسلمين بدافع الحقد ، والتعصب والتقليد الموروث عن الآباء والأجداد ، وبالتالى لا يقبل تطبيق نظام الاسلام فى نطاق الحياة العامة وفى مجال التقنين النافذ الملزم لكراهية فى الصدور وبسبب ممارسة طقوس دينية مخالفة للاسلام ، فان أريد تطبيق الاسلام فى بلد اسلامى يوما ما ، ظن من يعرف بالأقليات ظنا خاطئا أن الاسلام ينتقصهم حقوقهم ، ويفرض عليهم واجبات وأعباء خاصة تتنافى مع المستوى اللائق للانسان وكرامته فى العصر الحديث . غير أن المنصفين من هذا الفريق بعيدون كل البعد عن أمثال هذه الترهات والأباطيل ، فهم يترفعون عن دوافع التعصب الأعمى وبواعث العصبية الجاهلية ، فيعملون أفكارهم المجردة ، ويقدرون ماجاء به الاسلام من اصلاحات جذرية لتنظيم الحياة العامة والخاصة ، ويعترفون بسلامة واعتدال قواعد الاسلام وأحكام فقهه ونظرياته العامة التى تعتبر من أرقى وأنضج وأوفق لما توصل اليه الفكر القانونى المعاصر ، لذا فانه لا غرابة اذا وافق بعضهم على تطبيق أحكام الفقه الاسلامى باعتبارها وليدة البيئة العربية وتراث القومية العربية .

وفى انطباعاتنا أن هؤلاء سواء أكانوا ظالمين أم مقسطين عادلين لا يهمنا

أمرهم ، ولا يزعجنا موقفهم من الاسلام ، بل ولا يزيدنا ثناؤهم أو تقديرهم ايمانا وحبا وتقديرا لفقهنا الاسلامى العظيم ورجاله الأفذاذ .

وانما الأدهى والأمر ، والأنكى والأعجب أن نجد أناسا من الفريق الثانى — فريق المسلمين — يسيئون الى أنفسهم ودينهم ، ويستهينون باخوانهم العاملين فى حقل الاسلام الذين لا يشاركونهم فى الظاهر فى اختصاصهم ونشاطهم ، أو لا يسيرون معهم سير الأتباع فى كل شىء ، سواء أكان خيرا أم موصوفا بالخيرية .

وجناية هؤلاء فيما سنوضحه فاحشة منكرة ، لأننا كما نعلم لا يؤتى الاسلام الا من أهله وعشيرته :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند .

والاسلام فى عقيدة أتباعه هو المحكم فى الخلافات ، ومرد النزاع ، وعلى مائدته وفى هديه تفض المنازعات وتهدأ ثورة النفوس عند الخصام : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه الى الله » .

والاسلام كما هو معروف حرب على الجهالة والجهلاء ، وعدو للتخلف والهزيمة ودعاة الانهزام ، ودعوة الى الحرية والفكر والعقل والنور والمدنية والعرفان .

لكن الجاهل المعروف بجهله شأنه يسير ، وانما الخطر الذى نعانيه اليوم هو بسبب الجهل النصفى وهو جهل المتعلمين والكتاب والأدباء والمتخصصين فى شتى أنواع العلوم والمعارف الحديثة بحقيقة الاسلام ، ومع ذلك فهم بحكم اسلامهم وغيرتهم على دينهم يتصورون نظام الاسلام وتشريعه حسبما يتراءى لعقولهم « الذكية » وأفكارهم « العميقة » وآرائهم « السديدة » ، وغاب عنهم أن مثل هذا الذكاء والفكر محصور فى حدود اختصاصهم وفى دائرة أدبهم أو علمهم الذى تعلموه على مقاعد جامعات الغرب الشهيرة ، وفيما وراء ذلك يعدون جهلاء مغرورين مفتونين ان ادعوا علمهم مثلا بفقه الشريعة الاسلامية وأصولها ودقائق علومها وقدر فقهائها الأوائل ، بل ربما فى أحكام العبادة الدينية التى يؤدونها خمس مرات فى اليوم أو مرة فى العام أو فى العمر ، وهى فى الحقيقة مشتملة على أخطاء ، ومردودة فى وجوههم يوم القيامة ، لأن الله سبحانه لا يقبل من العبادة الا ماكان صحيحا خالصا من الشوائب .

وعند أدنى التأمل نقول : رحم الله امرءا عرف قدره فوقف عنده ، فلا عيب مثلا ان كنت جاهلا بعلم الطب أو الهندسة أو الفلك أو الفلسفة ، وأنا الآن أمارس اختصاصا آخر ، وعندئذ لا يعقل بداهة أن أتهجم على أرباب العلوم الأخرى وان كان الجاهل بالشىء عدوا لما جهل .

ولكن مع كل هذه البدهيات والمسلمات الضرورية فى منطق الأشياء ، تطلع علينا الآن بعض المؤلفات الاسلامية ، وتنشر بعض المجلات الاسلامية فى صفحاتها الأولى ، ويتواتر النقل عن بعض الجماعات والأشخاص الاسلاميين من دعوة سافرة الى التهوين من شأن دراسة الفقه الاسلامى واعتبار أن العمل فى ميدانه « ليس عملا للاسلام ، ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته ، وأنه مضيعة للعمر والأجر أيضا » .

هذا القائل أحد فئات خمسة تستهين بدراسة الفقه الاسلامى ، وتلتقى فى مآل الأمر — وان كان بغير شعور — مع النزعة الاستشراقية الآثمة التى

تطفح قلوب أصحابها بحقد دفين معاد للاسلام فى جملته ، وموجه الى القلعة الحصينة فيه بعد القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهذه الفئات الخمســـة هى مايأتى :

الفئة الأولى :

تقول : لا فائدة من دراســـة هذا الفقه المســـطور فى الكتب « القديمة » الكثير الفروع ، المشتت الأصول ، الموزع الأفكار ، المعقد الألفاظ والاصطلاحات ، والمشـــتغلون به هم « أهل الظاهر » وعلمهم علم الظاهر ، وأما هم فيأخذون العلم من مصدر الوحى ومفتاح النبوة وصاحب الرســـالة مباشرة بالاتصـــال القلبى ، أو عن حضرة الله بطريق العلم اللدنى : « وعلمناه من لدنا علما » .

وهذا محض الكذب والافتراء والغرور ، لأن الوحـــى لا ينزل الا على نبى او رسول ، ولا يطلع الله سبحانه على علمه وغيبه أحدا الا بوحى سماوى منزل : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول » . وأما الالهام المزعوم فلا يصلح دليلا من أدلة الشرع ، ولا طريقا لمعرفة أحكام الاسلام ، لأنه طريق غير مأمون العاقبة اطلاقا ، وليس بالموثوق عقلا ونقلا ، لاحتمال الخطأ والفوضى والتخليط الناجم عنه . ومن المعروف أن شرع الاســـلام انما يؤخذ عن صاحب الرسالة مباشرة وينقل الى من بعد أصحاب النبى بالسند المتصل الذى تميزت به الامة الاســـلامية عن غيرهـــا من الامم الاخـــرى ، وكـــان ذلـــك هو السبب فى الحفاظ على سلامة أحكام الاسلام من التغيير والتبديل ، والتحريف والتأويل ، والله ســـبحانه وتعالى نهـــانا عن التكلم فى الدين بغير علم ، قال عز شـــأنه : « ولا تقف ماليس لك به علم » « ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

هؤلاء الروحانيون عابثون تائهون يفترضون أشياء من بنات الخيال وعالم الأفكار البعيدة ان لم يلتزموا بضوابط الشريعة كما تلقاها صحابة رسول الله ، وعملوا بها ، وعرفوها واضحة جلية ، لأن شريعتنا تعتمد أو لا ـــ كما أشرت ـــ على النقل الصحيح الثابت عن رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال للعقل فى تقرير أو اثبات أو افتراض شىء بغير اعتماد على نقل ثابت ، أما فى مجال التحقق من صحـــة النقل أو التثبت منه فان للعقل دورا فى ذلك لتزييف النقل أو رده أو اقراره فى ضوء معرفة أصول الشرع ومقاصده العامة وأهدافه الاصلاحية ، ولن تتوفر تلك المعرفة بغير دراسة مستمرة طويلة تتمثل كل ماجاء به الاسلام من عقيدة وعبادة وتشريع وحكم وتوحيد وتصوف وتفســـير وحديث وفقه وأصول ... الخ .

وحينئذ فقط يتهيأ لنا أمثال أولئك الرجال الذين كانوا ينخلون الحديث نخلا بحس صادق وذوق مرهف وصفاء أصيل ، فصانوا السنة النبوية عن كل دخيل ، وحموها من افتراء المفترين ، ووضع الوضاعين للأحاديث المزعومة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفئة الثانية :

بعض الدعاة الى الاســـلام : وهذه أخطر الفئات ، لأنى والناس يحبون بالفطرة كل عامل مخلص لدين الله ، ويثقون بأشخاص الدعاة ، لأنهم مؤتمنون

على نقل رسالة الاسلام للأجيال المتلاحقة وتقريبها من أذهان الناشئة وعرض فلسفة الاسلام لهم عرضا شيقا رائعا ، وتصوير أهداف الدين ومراميه القريبة والبعيدة تصويرا أدبيا حديثا ومبتكرا أحيانا .

لكن هؤلاء ان أصابوا في مجال الدعوة الى الاسلام والمطالبة بتطبيق نظامه عقيدة ودستورا وحكما وادارة وقانونا نافذا ، فهم فيما يبدو متناقضون ، لأنهم ان أرادوا تطبيق دستور الاسلام ، فهل يمثل هذا الدستور تمثيلا بارزا جوهريا سوى الفقه الاسلامي يعنى الأحكام العملية الصادرة عن الانسان قولا وفعلا وتصرفا وهل تغنى الغيرة الدينية والعاطفة الصادقة والايمان الصحيح عن الربط العضوى الكامل بفقه الاسلام الذى يرسم للمجتمع حسبما تقضى به السياسة الشرعية نظام الاسلام الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى .

وهل الأمل الباسم باقامة مجتمع اسلامى مستقيم يعيد مجد الاسلام الأول وصفوه الأمثل يكون بغير قواعد الاسلام الفقهية وانظمته التفصيلية ؟ !!

وأما أحكام الاسلام الاعتقادية والخلقية ، فهذه فى الغالب ليست مثار نزاع ، الا لهوى شخصى ، اذ من النادر بين المسلمين من يتنكر لعقيدته وفطرته وقواعد الأخلاق التى وضعها الاسلام وبلورها على نحو يحقق الخير للجماعة والنفع العام للعالم من غير تمييز بين الناس فى الجنس أو اللون أو العرق أو اللغة أو الدين . وقلما تجد أحدا لا يسلم بأصالة الأخلاق الاسلامية وسموها وواقعيتها واعتدالها لمسايرتها متطلبات المادة والروح ، والدين والحياة ، والعمل والعبادة فى اتم نظام وأحكم أساس .

وأما الفقه الاسلامى الذى هو مصدر الدستور والقانون فلا تسهل معرفته ، ولا يعرفه الناس بدون دراسة مستمرة له تعرف المسلمين بأحكامه وتبين لهم ماهو خالد باق منه لا يتغير للنص القاطع الوارد بشأنه ، وما هو قابل للتطور والتبدل أو التعديل لانبنائه فى أصله على نحو مرن متجاوب مع المصالح المتجددة والحاجات المتغيرة . كما أنه لا بد من بيان ما يجوز للحكام فعله وما لايجوز من تقييد المباح ، وسد الذرائع ، وايقاف النص مؤقتا ، والسبل التى يسوغها الشارع فى بدء الحكم وأثنائه ، وما يصادم الشريعة من الوسائل المحرمة لتحقيق الغايات المرجوة .

أننتظر قيام دولة الاسلام الراشدية لنبدأ دراسة الفقه الاسلامى فيعم الجهل ويسوء الفهم وتختلف الآراء ، وتتجلى آثار ذلك فى وضع دستور اسلامى فوضوى مشبع بروح التعصب والهوى والاجتهاد القلق ، كما يحلو لأمثال هذا الأديب الكاتب !!

الا نعلم أن الناس اليوم افلسوا من بضاعة الوعظ والارشاد واثارة العواطف ، كما يفعل هذا الكاتب ، وكما يفعل الخطباء فى محاضراتهم وعلى منابرهم ، وسبب الافلاس أن الناس أصبحوا لا يتحمسون للمبادىء الرائعة دون أن يلمسوا فائدتها أو يعرفوا حقيقتها وأهدافها ، أو يدركوا المصالح المترتبة عليها ، كما يفعل الفقيه فى تبيان كل ذلك وايضاحه .

الا ندرك ادراكا تاما ان كفالة الله لحفظ القرآن الكريم لا تقتصر فقط على حفظ آياته السامية بين دفتى المصحف دون تحريف أو تبديل ، وانما الحفظ شامل لكل الروافد التى تساعد على حفظ القرآن ، ومن أهمها وأولها مدارس الشرع وحلقاته وكلياته وجامعاته ؟ !!!

كيف يصح القول بأن دراسى الفقه يشبهون مصممى الأزياء والملابس التى تتغير حسب الفصول والأعوام ، علما بأن فقه الاسلام يرتد فى الحقيقة الى المصدر الالهى بطريق الوحى ، اذ لا خلاف بين المسلمين فى أن مصدر جميع الأحكام الشرعية انما هو الله سبحانه بعد البعثة النبوية ، سواء أكان ذلك بطريق النص المباشر فى القرآن والسنة ، أم بواسطة الفقهاء المجتهدين ، لأن المجتهد مظهر للحكم لا منشىء له من عند نفسه .

واذا كان هناك « قسط كبير من الأحكام الفقهية من ثمرات التفكير الاجتهادى اهتدى اليها بوسائل استنباطية مختلفة » فلا يعنى ذلك كما يتبادر للأدباء مثلا ان هذا الاجتهاد من محض الفكر الشخصى والهوى الذاتى ، لأن الاسلام الذى هو تشريع سماوى يتقيد الاجتهاد فى نطاقه اما بتفسير نص قرآنى ، أو حديث نبوى صحيح ، أو أصل شرعى مستنبط منهما ، أو قاعدة فقهية مأخوذة من وقائع التشريع وأسباب النزول أو من المقاصد العامة والأهداف الكبرى أو الأساسية التى ينشد الاسلام تحقيقها وتنظيم المجتمع على هديها ان كان ما يكتبه هذا الكاتب الأديب الذى يجعل العمل فى الأدب والفن والتجارة أفضل من دراسة الفقه وأجدى سبيلا هو زلة قلم وشططا فى القول ، فالخطب يسير ، لأن الكاتب أحيانا يكون متأثرا بالخيالات ، وقد يجمح به الغرور ودافع التجديد الى اسفاف فى الكلام ، وقد يجرى على قلمه شطحات شيطانية تشبه شطحات الشعراء وغلواءهم والشعراء يتبعهم الغاوون .

وأما ان كان ذلك فكرة وتخطيطا كما هو المرجح من أمثاله وأعوانه والناشرين لكلامه لتهوين دراسة الفقه وتقليل أهميته وجدواه ، والاستخفاف برجالاته وأساتذته وطلابه ومعاهده ومدارسه ، فهذا ما نرفضه رفضا أبديا ، ونعلن تخطئته ، ونقرر أنه جهل فاضح بالفقه وأحكامه وانظمته ، كما بينا فى بدء المقال .

فهل دراسة تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى لها ثمرة عملية فى الغالب غير ثمرة استنباط الأحكام الشرعية منهما ، فهما فى الحقيقة وأغلب علوم الاسلام قد تبلورت وتمثلت فى الفقه والفقهاء ؟ !

وهل يعرف الغربيون عن حضارة العرب وأفكار المسلمين القانونية غير فقه الاسلام الذى يصور المجتمع فى نشاطه الفكرى والاقتصادى والاجتماعى ؟ !

وهل المؤتمرات الدولية اعتمدت غير الفقه الاسلامى مصدرا من مصادر التشريع العام فى العالم ؟ !

وهل يستطيع امرؤ الغض من قدر فقهائنا العظام الذين هم مفخرة الاسلام الكبرى وأعجوبته النادرة بما أعقبوه من تراث مجيد غزير صالح الى الآن ومنذ اثنى عشر قرنا ، لأن رائدهم كان هو الاخلاص والتفانى فى الوصول الى الحق وخدمة العلم ، ولأنهم يستمدون من روح الاسلام وأصوله الأبدية ؟ !

وهل خلد الرومان ذكرهم بالرغم من عظمة دولتهم ومضى آلاف السنين عليها بغير الفقه الرومانى الذى هو شىء يسير اذا قيس بالفقه الاسلامى والذى اشتغل به فقهاؤهم الاقدمون ، حتى كانت آراؤهم ونظرياتهم أساسا أوليا للفقه اللاتينى المعاصر فى أوروبا ، مما بوأ تاريخ الرومان القانونى منزلة جعلته يحتل مقررا دراسيا فى مختلف كليات الحقوق الحديثة ؟ !

ثم انه هل يفتخر الفرنسيون واضعو القوانين فى العالم الغربى بغير مجموعة نابليون بونابرت التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م بفضل الفقهاء القانونيين الذين كانوا من ورائها . وكذلك شأن الجرمان والفقه الجرمانى وغيره .

وهل الفقهاء فى كل عصر على ممر التاريخ الا أولئك العمالقة الذين يعكسون لنا صورة المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويرسمون لنا صورة نظامه القانونى وحياته التى تسير فى فلكه ودائرته ، فنستفيد بالتالى من تجارب الماضى ونخطط للمستقبل على نحو متزن واضح .

ان الذين يهونون من شأن الفقه ودراسته ويقولون مثلا : انه « فقه العوام » للصلاة والصيام والأعمال ، الم يكونوا هم بالأولى أحرص الناس على الاستفادة من هذا الفقه لتصحيح عباداتهم ، وقد شاهدت بنفسى خللا فيها عند بعضهم ، ثم ترغيب الناس وحمل أنفسهم بالذات على جعل البيوع والأشرية والشركات والرهون والتجارات على أساس اسلامى ؟ !

ثم الم يعلموا أن فقه الاسلام راجع اما الى آية قرآنية ، أو حديث نبوى ، أو أصل اسلامى ، وأن عمل الفقهاء ليس بضاعة مزجاة كما يزعمون وانما هو عمل خالد باق مثمر ، وثروة تشريعية كبرى ، وخدمة جلى للاسلام ، ونحن بأمس الحاجة الى دراسة انتاجهم ، واقتناء حصاد أفكارهم ؟

وهل أصحاب الفن والأدب والتجارة قليلون حتى نترك دراستنا الفقهية ، ونزاحمهم على عملهم « الشريف » ؟ ! واذا تعرضت مؤسسة تعليمية للعلوم الشرعية للالغاء من سلطة ما ، فلماذا نتألم ونأسف اذا كان هذا الأديب الكبير وداعية الاسلام يرى أن الاشتغال بالفقه الاسلامى مضيعة للعمر والأجر معا : « كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا » .

لا يصح لى أن أقول وفق منطق الكاتب المذكور : ان الاسلام هو الفقه مثلا ، وانما هو كل علم له صلة بالشريعة ، مما يوجب على احترام المختصين فيه ، وتقدير القيم الناتجة عنه ، ذلك لأن الاسلام كل لا يتجزأ وكل علم فيه يخدم العلم الآخر ، والاسلام بنيان كبير يحتاج الى مهرة متعددين متعاونين لا قامة صرحه ورفع لوائه ، والاسلام بحاجة ماسة الى تعاون أيدى كل اتباعه ، فهو يحتاج الآن الى المفسر والمحدث والفقيه والاصولى والمتكلم (عالم الكلام أو التوحيد) والفيلسوف والمؤرخ والداعية ، كما انه محتاج لتطبيق مبادئه ونهضته الى الخبراء الاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين والكتاب والأدباء والمترجمين ، والمخترعين والصناع والتجار والزراع والمثقفين والقضاة واعوانهم ... الخ . هكذا يقوم بنيان الاسلام : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

ومن يستطيع الزعم بأن دارس الفقه لا يدعو الى الاسلام واقامة دولته ، والجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة الأعداء مهما كان لون العدوان ، وطرد المحتلين والمستعمرين من كل جزء من اجزاء بلاد الاسلام ، وهل حمل لواء الجهاد بحق الا الفقهاء على ممر العصور ، فنحن فداء للاسلام بالروح والمال عقيدة وجهادا وتضحية وبذلا وسياسة وعملا واخلاصا ونصحا . قال أستاذنا الجليل

الشيخ محمد أبو زهرة : « ومن يحاول أن يفهم الشريعة الاسلامية على أنها قوانين مجردة ومعالجات لاصلاح طوائف من المجتمع وتنظيم معاملاتهم من غير ان يربطها بالاسلام ، فلن يفهمها على وجهها الصحيح ، لأن الفهم المستقيم : ما قام على رد الفروع الى أصولها ، والنتائج الى مقدماتها ، والأحكام الى غاياتها ، والآراء الى مقاصد قائليها . . . » .

وان دراستنا للفقه لا تعنى فقط معرفة آراء فقهائنا العظام فى عصر الازدهار الفقهى فى القرن الثانى الهجرى ، وانما هى دراسة نقدية ايجابية متحركة نامية تقرر ما عليه الفقه فى الماضى ــ واغلبه جيد ــ وتبين مدى ملاءمته للحاضر وتطلعات المستقبل ، وعندئذ نستفيد من تراثنا العظيم ومن طرائق المجتهدين فى استنباط الأحكام الشرعية ، ثم نحاول تنمية هذا التراث وتطويره ووضع الضوابط الصحيحة المستفادة من فقهائنا للانطلاق المتعقل نحو المستقبل المنتظر والحاضر القائم .

هذا فضلا عن معرفة أحكام الحلال والحرام والصفة الدينية التى يتصف بها الفقه الاسلامى وبيان أوجه صحة العبادة الشرعية والمعاملات المدنية ، ونوع العقوبات الجزائية التى يجب تطبيقها على الجناة ، وأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ومواريث ووصايا ، وأصول المعاهدات وأحوال السلم والحرب والأوضاع الدستورية والادارية ، والعلاقات الخارجية والداخلية مع غير المسلمين . كل ذلك يعرف فى كتب الفقهاء ، فهل الاشتغال بذلك يعتبر مضيعة للعمر والأجر معا ، وهل هو فقه أوراق رخيص ؟ !!

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوص بشىء غير العلم والفقه فقال : « أفضل العبادة الفقه » « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » « ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم . . . » الحديث . واذا كان الفقه المراد فى الأحاديث المذكورة أعم من فقه الفقهاء ، فهو على كل حال من مشمولاته وأخص ما يراد منه .

والزهد بدراسة الفقه زهد فى الحقيقة بالاسلام ؟ لأن غاية الفقه الاسلامى تنظيم الحياة الخاصة والعامة واسعاد العالم كله ، وتحقيق مصالحهم ، ودفع السوء والمفاسد عنهم ، ووضع أسس المجد المرتقب ، واصلاح العلاقات الانسانية وتقوية الصلة بالله .

فهل العناية بدراسة هذا الفقه لا تخدم رسالة الاسلام ، أو أن العمل فيه عمل مريح لا خطر فيه كما يتصور أديبنا الكاتب الكبير ؟ !

أجل ! انه عمل ثقيل لمن يعرف الفقه ومشتملاته ، ومسئولية عظمى وأمانة كبرى عند من يحسن فهم الفقه ، فالفقيه اذا سئل عن قضية فأفتى فيها بما يخالف ارادة الحاكم مثلا تعرض لكل أنواع الضغط والتعذيب والتنكيل ، كما حصل للامام مالك فى عهد أبى جعفر المنصور حيث أفتى بعدم وقوع طلاق المستكره ، فجلد ، وكما ثبت الامام أحمد أمام سياط الخليفة المأمون فى محنة خلق القرآن ، فثبتت بثباته عقيدة الأمة .

ومع كل ذلك ، هل الحكام والأمراء ودعاة الاصلاح بغنى عن فقهاء يعتبرون عونا أوليا لهم ، وسندا دائما معهم ، وقوة فكرية تؤصل سياستهم أو دعوتهم على أساس علمى رصين ، وفكر ثاقب ، ورأى نافذ ؟ !

فليس الاسلام عاطفة فقط ، ولم يقم مجتمعه على غير هدى ونور ، وعلم وفقه ، ونظام وتخطيط .

وهل اثبات صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ، أو اثبات مرونته وتطوره وقابليته للحياة الحاضرة يكون بغير دراسة الفقه وانضاج احكامه ، وسبر أغواره ، ورصد تطلعاته ومراميه وأبعاده ؟!

واذا كان منهج الاسلام وطبيعته فى بادىء أمره فى مكة هو محاربة عوامل الانحراف الاساسية للمجتمع ، والقضاء على مفاسد الجاهلية ، فلا يعنى ذلك أن يكون الحفاظ على الاسلام الآن وتهيئة عوامل الاستقرار لأنظمته رهينا باصلاح العقيدة فقط ، بل لابد من تعاطف جميع القوى الاسلامية وقوانين الاسلام لاقامة حياة منظمة ومجتمع مسلم ، وهل القوانين الوضعية الآن التى تخطط لأفكار الناس ونشاطاتهم سوى فقه الفقهاء وصنيع العلماء ؟!

أجل !! ان محاربة دراسة الفقه من بعض المسلمين ، أو قادتهم ان كانوا كما يحسبون قادة لموقف غريب مدهش ، بل هو أشد ما رايته غرابة فى حياتى فى عصرنا الحاضر الذى لا تقوم فيه دولة بغير دستور وقانون . وعلى كل حال فالتهوين من دراسة الفقه بكل أبوابه مصدره جهل به ، وغرور مسيطر على نفوس بعض الأشخاص ، ولعلى لا أبالغ فى اثبات صحة ما أقول ان تحديت أو امتحنت أمثال أولئك المستهينين ليفهمونا حقيقة نص فقهى أو منشأ قاعدة أصولية ، أو طريق الخلوص من تعارض دليلين شرعيين ، ان لم يحتكموا الى مجرد عقولهم ومنطق أقوالهم ، وما أبعدها أحيانا عن المنطق الصحيح والفكر الاسلامى الأصيل .

ان الفقه الاسلامى الذى عرف أحدث النظريات القانونية الجديدة مثل نظرية الظروف الطارئة والقوة القاهرة ، ونظرية تحمل التبعة ، ومسئولية عديم التمييز ، والتعسف فى استعمال الحق ، والضرورة ، وضمان الاعتداء أو المسئولية المدنية والجنائية .. الخ : هذا الفقه أى عار فى دراسته وهلا نعترف بأنا مازلنا مقصرين بحقه للاستفادة منه ، ولرفد الفكر المعاصر بأصول ومبادىء كثيرة من معينه الذى لا ينضب . وعند ئذ تتجلى الحقيقة الدامغة ، وتتبدد أوهام القائلين بأن دراسة الفقه الاسلامى هى مجرد دراسة تاريخية محضة متذرعين بعدم تطبيقه الآن ؟ !

الفئة الثالثة :

بعض دعاة الاصلاح للدراسات الاسلامية فى المعاهد والجامعات : لقد طالعتنا أحداث « المجددين العصريين » بالعجب العجاب استجابة لصيحات سابقة باصلاح مناهج الدراسات الاسلامية منذ أكثر من ربع قرن ، مطالبة تلك الصيحات بالنهوض بدراسة المشكلات المعاصرة وتغيير الكتب المقررة ، وتبسيط المقررات الشرعية ، والابتعاد عن دراسة الفروض والقضايا النظرية والمسائل الخيالية والأبحاث غير الموجودة فى وقتنا .

لكنا مع الأسف بعد أن ترقبنا المولود السعيد القوى « تمخض الجمل فولد فارا » فكان الاصلاح الجامعى على غير المراد ، اذ جاء مسخا وتقصيرا وقتلا

او اضعافا للدراسات الاسلامية ، فبدلا من وضع المناهج الجديدة فى مرحلة التعليم الثانوى والجامعى على أساس اسلامى صرف يؤصل الاحكام الاسلامية ويربطها بأصولها الأولى ونظرياتها العامة ومقاصد التشريع وتعميق الأفكار وعقد الصلة بالحياة الحاضرة ، وبدلا من توسيع دائرة تدريس العلوم الاسلامية ، بدلا من كل ذلك تركز الاتجاه نحو تقريب الفقه الاسلامى مثلا من القانون الوضعى على انه الأصل « الأسمى » واصبحت المقارنة مع الفقه تستهدف تذليل الأحكام المخالفة للقانون على نحو يتقبله سدنته وتصورات رجاله ، ناسين بأن فقهنا الاسلامى له طابعه الاستقلالى ، وأن القانون لم يستقر بعد ، وهو من وضع المستعمرين والأعداء الحاقدين .

واصبح مع الأسف الشديد حظ دراسة العلوم الاسلامية بمقدار الخمس ، وخصصت الأربعة الأخماس الباقية للعلوم العصرية .

الفئة الرابعة :

الزعانف والطفيليون : وهؤلاء أمرهم جلل حقير اذ أن كل الناس يعرفونهم ، فهم لنقص فى تكوينهم لاهم لهم الا التطفل على العلم ومحاولة مد الرءوس على موائد العظام ليختلسوا عظمة تسد جوعتهم ، وترفع خسيستهم ، وتعوضهم عن دناءة طبعهم وانحطاط اقدارهم ، ليظهروا بذلك فى مصاف العلماء ، بل فوق الفقهاء ، بل المجددون المصلحون كما يروق لهم وكما يزعمون ، ولكن لا يعدو أمرهم عن انهم كالحجاب الذين اعتادوا السطو على ما فيه جيوب الناس ، أو التسلط على سدة الحكم وتقلد السلطة كما حصل فى دور انحطاط الخلافة العباسية .

وطريق هؤلاء فى الظهور تتبع شواذ الآراء الفقهية ومحاولة ترجيحها وتقويتها بظواهر الأحاديث النبوية ، ثم يطلعون على الناس بالجديد « المحقق » والرأى « الصائب الدقيق » المستقى من سنة النبى صلى الله عليه وسلم وفقه السلف الصالح ، وكأن فقهاءنا كانوا لا يعرفون السنة فى عهد تدوين السنة وفى القرن الذى شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيرية ؟ !

وان أردت معرفة هؤلاء فهم بسطاء فى العقل ، قساة فى الطبع ، شذاذ فى الآراء ، يزعمون التجديد ، ويزيفون اقوال فقهائنا الغابرين الذين شهد لهم الشرق والغرب بفقهم ، يعادون أساتذة الفقه ويصفونهم بالجهل ، ويتكلمون بكلام أخرق لا أدب فيه ولا ذوق ولا ميزان ولا أصول ، ويتشدقون بالأقوال ، وينادون بتوحيد المذاهب الاسلامية والزام الناس براى واحد من بين هذه الآراء التى هى « ركام » أو « خيام » أو خرافات » . وأما هم فلا يقولون الا حقا ، ولا ينطقون الا بالحكمة ، ولا يرون رأيا أصح أو أرجح فى الاسلام من رايهم « الفج » وصدق الله حيث يقول : « ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام .. » الآية .

هؤلاء فى الحقيقة عنوان الخرق والسفه والجهل والطيش والغرور ، لأن الدعوة مثلا الى **توحيد المذاهب دعوة فارغة وكلام شاعرى** اذ كيف يمكن جعل الاثنين فى واحد أو الاناءين فى وعاء واحد ؟ فاختلاف المذاهب الفقهية أمر ضرورى

لمن اشتغل بالدراسات الفقهية وعرف أدلة الشريعة وطبيعتها وكيفية استنباط الاحكام منها وتنوع الفاظ اللغة العربية فى الدلالة على الحكم ، وهو أيضا اختلاف يعد بحق رحمة للامة لما فيه من توسعة وتيسير فى اتباع الشخص ما يسهل عليه عند الحاجة ووفق متطلبات الحياة . وبذلك يعتبر اختلاف المذاهب الاسلامية مفخرة كبرى ، لأنه ثروة تشريعية عظيمة يأخذ منها الناس ماهم بحاجة اليه ، لا سيما وان الحاجات متجددة ، والمصالح متغيرة ، والأنظمة متبدلة ، والحياة فى حركة وفاعلية ونمو وتبدل مطرد ، فاذا الزمنا الناس براى واحد او بمذهب معين — وهو مالم يجرؤ عليه كبار الخلفاء العباسيين — نكون بذلك قد حفرنا بأيدينا قبورنا لأنفسنا . والتوفيق بين المذاهب يخلق نوعا جديدا من التعقيد والتضييق أعقد بكثير مما عليه الفقه الحاضر ، بل انه يزيدنا حيرةوارتباكا كبيرين فى التزام وتطبيق الأحكام الشرعية .

نعم انه لا مانع من الأخذ بأى راى او مذهب اسلامى فى مجال التقنين الموضوع ، لأن للحاكم ترجيح أحد الآراء الفقهية ، ثم قد يجد حاكم آخر بعده تجافيا لهذا الراى مع المصلحة الزمنية . ومن هنا أصاب مخططو الموسوعة الفقهية فى الكويت وغيرها بالاقتصار على عرض أحكام الفقه الاسلامى كما هى دون تدخل من الكاتب براى شخصى الا فى الحاشية ، حتى لا يكون هناك حجر فى المستقبل على الأخذ براى آخر ، لا سيما اذا كان المرجح غير أصيل النظرة الفقهية ، بله العالة على الفقه ؟ !

الفئة الخامسة :

دعاة الاتجاه النظرى للفقه : وهؤلاء يقولون : ان الفقه الاسلامى فى بدء تكوينه اتجه اتجاها نظريا منفصلا عن الحياة العملية الواقعية ، او انه فقه ورقى مثالى لا يتعدى جدران منزل الفقيه وتصوره المجرد . وهذا الفريق ممن تتلمذ على بعض كبار المستشرقين من أصل يهودى مثل جولد تسيهر ، وكأن هؤلاء تأثروا بما كان يصدر عن الخلفاء الأمويين والعباسيين من مخالفات لأحكام الفقه . وهذا لا يصلح حجة ، فان مخالفة الحاكم السياسى لحكم فقهى لا يصلح دليلا على مثل هذه الدعوى الخطيرة الفارغة التى تلتقى مع انصار الفئة الثانية التى تكلمنا عنها ، وكلهم كما أوضحنا مخطئون فى تصورهم عن الفقه والفقهاء ، لأن فقه الاسلام يعتمد فى الدرجة الأولى على النصوص الشرعية التى لا مجال للادعاء بأنها لم تجىء للحياة العملية ، وأما المخالفات فهى حجة على أصحابها فقط .

وأما فقهاؤنا — كما هو معروف عن حياتهم وسيرتهم — فقد كانوا على صلة وثيقة بالحياة بدليل اعتمادهم على الأعراف والعادات والاستحسان والاستصلاح والقرائن العرفية ، واستقراء الحوادث وتتبع أحوال الناس ، وسؤال التجار والاختلاط بهم ومعرفة مايدور فى الأسواق وتعاطى الصنعة والتجارة احيانا ، والتنقل فى البلدان طلبا للحديث ، ومعرفة الأحوال السائدة فى الأمصار وفى العواصم والأقطار ، مما يكون سببا أحيانا للرجوع عن مذهب كامل او عن آراء فى مسائل جزئية ، لذا كان الفقهاء المتأخرون يقولون عن اختلاف بين ائمة المذاهب المتقدمين : هذا اختلاف عرف وزمان ، لا اختلاف حجة وبرهان .

وكان بعض الفقهاء يوجهون الحكام بطريقة غير مباشرة فى وضع الخطط السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لما كان للفقهاء من منزلة مرموقة بين الناس ، حتى ان الخلفاء العباسيين وجدوا حاجة ماسة للتقرب من الفقهاء .

وقد يوجهون الخلفاء بطريقة مباشرة باصدار الفتاوى واقتراح الترتيبات اللازمة لاصلاح الادارة والنظم المالية لتأمين الواردات ، والعدالة فى النفقات . وكان الفقهاء هم الذين يضعون أنظمة القضاء وطريق الفصل فى المنازعات والأقضية وشروط القضاة ، ويفيدون أيضا بلفت الأنظار نحو مبدأ السياسة الشرعية والضرورات العملية الطارئة التى تقتضيها شؤون الحياة والعمران والدولة والأفراد .

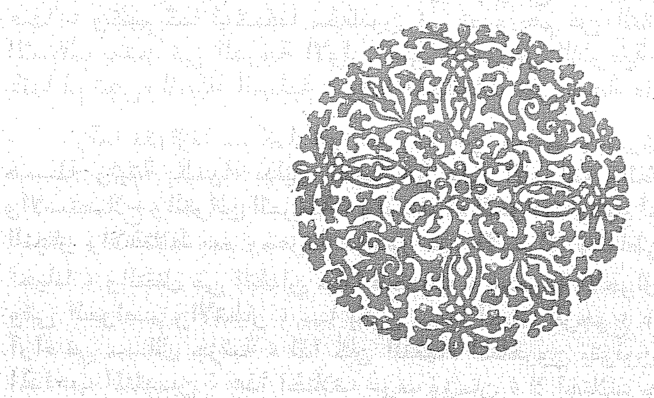
هذا فضلا عن أن الفقهاء كانوا المرجع الأوحد لافتاء الناس فى قضاياهم المدنية والجنائية ، وكان المسلمون حريصين فى كل زمن على الاستفادة من علم الفقيه واجتهاد المجتهد .

فهل كان هذا الفقه بعد كل هذا عملا مثاليا نظريا غير مطبق ولا متفاعل مع الحياة العملية ؟ !

ان هذه دعوى من أبطل الباطلات ، وسبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .
نعم كان هناك ما يعرف بالفقه الفرضى أو الافتراضى أى افتراض حوادث ووقائع لم تقع ، والحكم عليها سلفا ، الا أن هذا لا يعنى أن تكون الحادثة نظرية بحتة ، وانما احتمالات وقوعها كثيرة ، وهذا يدل على بعد نظر الفقهاء وعمق تفكيرهم ، مما أكسب الفقه وبخاصة فقه الحنفية خصوبة وسعة وحيوية .

هؤلاء هم المعتدون على الفقه الاسلامى من أهله وذويه ، والمسلمون عموما اشد عدوانا باهمالهم المطالبة بتطبيق أحكام الاسلام واحترام مبادئه ، والتزام أهدافه ، وتنفيذ شرعه عملا ، الا أنه بالرغم من كل صنوف العدوان الأثيمة ، وألوان الظلم والقطيعة ، سيظل الفقه الاسلامى فقها ذا مدلول وقيمة حضارية كبرى ، ولن يهون من شأنه أقلام واشخاص وفئات نكرات عنه ، وليطمئن الناس الى أن من يستهين بالفقه ومدارسه واساتذته شأنه شأن قول القائل :

كناطح صخـــرة يوما ليوهنها   فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل



النشـــاط الصهيوني الأمـريكي

«عود على بدء»

لمطـلع كبير

وبمناسبة الحديث عن النشاط الصهيونى بالولايات المتحدة الامريكية الذى نشر بعدد شهر رجب ١٣٩٠ بمجلة « الوعى الاسلامى » الغراء يحسن أن ننتبه الى أن نفوذ ذلك النشاط واثره يتجاوز الحدود الامريكية ويتعداها الى سـائر الاقطار فى أوربا وآسيا وافريقيا واستراليا ، حيث تتجاوب له جيوب المنظمات الصهيونية العلنية والخفية المنبثة فى جميع الاركان . فمما لا شك فيه أن السنة الاعلام الامريكى أقوى منها فى أى بلد آخر وأكثر موارد واقوى نفوذا ، فما تنشره الصحافة الامريكية التى يسيطر عليها الصهيونيون بصفة تكاد تكون كاملة تتلقفه السنة الاعلام بالبلاد الاخرى وخاصة فى الاقطار الموالية للغرب فتعكس ما فيه وتكرر الاكاذيب والتلفيقات التى يحتوى عليها ، وفى ذلك من الخطورة ما فيه .

ويجب أن نعلم أن خصومة الصهيونية للعرب والاسـلام لا تقتصر على الناحية العسكرية ، بل هم يحاربوننا فى عقائدنا ، ويحاربوننا ثقافيا وحضاريا وتاريخيا ، ويعملون على طمس المعالم ودفن الحقائق ، ويبنون على انقاضها اكاذيب ملفقة يروجونها ، ويكررونها فيغيرون الحقائق التاريخية ، ويصفون الكتاب الكريم بما ليس فيه ، بل يحرفونه ويغيرونه ، ويقللون من اهمية حضارة

الاسلام ويمسحون عقيدته ، والخطر كل الخطر ما يترك ذلك من اثر فى عقول الناشئة ، ولو ان قادة الفكر الاسلامى اهملوا هذا الجانب فواصلنا تغافلنا ولم نعد العدة لمواجهة هذا الخطر بطريقة علمية فعالة ، فانه يخشى ان تنشأ الاجيال الجديدة وخاصة فى البلاد الغربية ذات النفوذ متشبعة بهذه الاكاذيب متقبلة لها على انها حقائق تاريخية او ثقافية او دينية .

ولنضرب بعض الامثلة لتلك الاكاذيب التى اضحت لدى شعوب الغرب — الا لدى من عصمه الله — وكأنها من التنزيل .

يكذبون — لعنهم الله — نبوة الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويزعمون انه انما تعلم من اهل الكتاب الذين يدعون انهم كانوا يكثرون فى مكة والمدينة وانه اخذ عنهم وخاصة عن اليهود ثم كون افكاره ، وزعم انه يوحى اليه ونسب كتابه الى الله — استغفر الله — فيمثلون لذلك باتخاذ القدس قبلة فى الصلاة أيام مكة وفى بدء عهد الهجرة بالمدينة ، ولكنه لما حقد على اليهود جدلهم ونفضيحتهم اياه (هكذا) غير اتجاه القبلة وجعلها تجاه الكعبة نكاية فى اليهود ، ويضربون المثل ايضا باحترام الاسلام ليوم عاشوراء تقليدا لليهود ، وباتخاذ احد ايام الاسبوع يوما ذا صفة دينية خاصة اتباعا لهم ، ولكنه كى يخالفهم جعله يوم الجمعة بدلا من يوم السبت !

ثم انهم ليكذبون على القرآن ويصفونه بما ليس فيه ، ويكذبون على الرسول صلى الله عليه وسلم وينسبون اليه مالم يقل او يفعل ويروجون الزعم بان النبى صلى الله عليه وسلم فرض دينه على عرب الجزيرة بحد السيف ، ثم تبعه فى ذلك اصحابه فنشروا دينه بجيوشهم الجرارة وبعامل الرعب والفزع لا بالاقناع والحجة متغافلين عن الحقائق التاريخية وعن نصوص القرآن نفسه التى تعارض هذه الاكاذيب !

والعجب كل العجب ان تلك المفتريات تلقى اذنا صاغية متقبلة ، وليس ادل على ذلك مما ذكره قاض امريكى كبير كان الى عهد قريب عضوا بارزا بالمحكمة العليا ، زعم فى سياق الحديث عن التعليم الدينى بالمدارس ان فاتحة الكتاب التى يكررها المسلمون فى صلاتهم تحض على قتل غير المسلمين ، ونشرت الصحف ذلك الحديث فاحدث ضجة بين مسلمى امريكا الشمالية وكتبت اليه احتجاجات مشددة من جانب البعض واستفسارات مهذبة من بعض السادة سفراء الدول الاسلامية ، فكانت اجابته غير مقنعة ولم يبال بتصحيح ما ذكره فى الصحف كما كان ينبغى .

ومما قرأنا اخيرا فى صحيفة يسارية موالية للصهيونية مقالا لاحد مراسليها عاد من زيارة للمغرب العربى فصار يسب فى اهله ويطعن فى اخلاقهم ويصف الكتاتيب وصبيانها وصفا مزريا وزعم انهم يتعلمون هناك قصصا منها ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) رأى اصحابه مرة يتكلمون مع النصارى بالمدينة فغضب لذلك ونهرهم وزجرهم .

ثم انهم ادخلوا فى روع العالم ان الوجود الاسرائيلى الحديث هو ما بشرت به نصوص العهد القديم التى يؤمن بها ويقدسها اليهودى والمسيحى على السواء ، اعنى تلك النصوص التى وعد الرب فيها ابراهيم ان تكون ارض

فلسطين لذريته ، متناسين أن من العرب ايضا من هو من ذرية ابراهيم ، ومتجافين للحقيقة اعنى أن زعماء الصهيونيين الافاقين صادرون من سلالات لا تمت لابراهيم عليه السلام بصلة وانما اعتنق اسلافهم دين اليهودية ، فليس كل يهودى من ذرية ابراهيم كما انه ليس كل مسلم من ذرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم !

ثم يزعمون أن الوجود الاسرائيلى حقيقة تاريخية ثابتة ، بمعنى انه منذ قامت دولة اسرائيل على يد دواد لم ينقطع ابدا وجود عدد من اليهود بفلسطين أو بمدينة اورشليم (القدس) بصفة خاصة قل ذلك العدد أو كثر ، حتى قامت دولة اسرائيل الحديثة عام ١٩٤٨ ، بينما حل العرب بفلسطين مع الفتح الاسلامى فقط أى منذ مادون اربعة عشر قرنا ، ثم يقولون ان فلسطين لم تكن ابدا دولة عربية مستقلة ، بل كانت تحكمها المدينة أو الكوفة أو دمشق أو بغداد أو القاهرة أو استانبول حتى فرض عليها الانتداب البريطانى عقب الحرب العالمية الأولى . ويتغافلون عن الحقيقة التاريخية وهى ان العرب كانوا مستقرين بفلسطين قرونا قبل الفتح الاسلامى الذى حطم دولة الغساسنة العربية الموالية للدولة البيزنطية فى ذلك العهد ، وان اليهود كانوا ممنوعين عن الاقامة بمدينة القدس حتى الفتح الاسلامى ، ثم انهم يقيسون الامور على ضوء مفهوم القومية الحديث متجاهلين الحقيقة ، وهى ان فلسطين جزء من الامبراطورية الاسلامية المجيدة لا يعنيها اذا كان مقر خليفتها المسلم الكوفة أو دمشق أو استانبول ، والعجيب أن تلك الترهات يبتلعها ويتقبلها من يظهر مواليا للقضية العربية من الغربيين وتنعكس فى كتاباتهم !

ومن الأكاذيب التى اصبحت حقائق مسلمة تتكرر دائما على الالسنة وعلى صفحات الجرائد وبالكتب والنشرات وعلى شاشة التلفزيون زعمهم أن لاجئى عرب فلسطين ضحية اخطاء الحكومات العربية المجاورة ، فيدعون انه فى عام ١٩٤٨ — عندما حصلت اسرائيل على ما يسمونه الاستقلال — عملت الدول العربية على احراق اليهود بالنار وقذفهم فى البحار وسيرت جيوشها الى فلسطين لهذا الغرض ونشرت نداءات لعرب فلسطين باخلاء بيوتهم والخروج الى الصحراء كى لا يتعرضوا لاهوال الحرب حتى اذا تم تطهير البلاد من اليهود عادوا على ديارهم ، ولكن يقولون هزمت الجيوش العربية ونجحت اسرائيل فى استقلالها ثم لم تكن اسرائيل لتقبل عودة هؤلاء لخطورتهم على سلامتها ، ثم انهم لا يذكرون شيئا مما يقوله الطرف الآخر من اثر اعمال عصابات الارهاب الصهيونية حتى قبل قيام اسرائيل — كما حدث فى مذبحة قرية ديرياسين فى ١٠ ابريل ١٩٤٨ التى ملأت قلوب السكان العزل المساكين فزعا ورعبا وحفزتهم على الهرب بعد أن ذبح فيها ٢٥٤ من رجالهم ونسائهم واطفالهم ، وكان هذا فى الحقيقة الهدف المبيت لهذه الاعمال الوحشية ، كما طردت اسرائيل وتطرد عشرات الآلاف من اصحاب البلاد ، وتنسف بيوتهم وتستحل اموالهم على مسمع من الغرب الاعمى المطموس على قلبه !

لا يذكرون هذا حتى على سبيل الجدل ويحاولون الرد عليه وذلك كى تكون دعواهم وحدها هى التى تشغل افكار الناس وعقولهم ولا يزاحمها فى ذلك قول آخر .

لقد استشرى الخطب واستفحل المصاب ، ولكن اليأس والقنوط عجز ، والكتاب الكريم يقول « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ولكن ليس معنى حفظ الله لهذا الذكران يتحقق باعجوبة او عن طريق المعجزات ، فقد انتهى عهد تنزل الملائكة مسومين أو مردفين ، وانما يكون ذلك عن طريق العمل الاسلامى الصحيح والكفاح الواعى المستنير .

لذلك ينبغى علينا معشر المسلمين أن نعى حقيقتين ثابتتين ، ثم نخطط كفاحنا على اساسهما ، الحقيقة الأولى هى ماذكرنا من قبل من أن الخطر الصهيونى ليس قاصرا على الناحيتين السياسية والعسكرية فحسب بل هو خطر يتهدد ديننا ويحاول تحطيمه ، واليوم نرى المسجد الاقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين بيد العدو وتحت رحمته . ولولا بعض الاعتبارات لهدم وبنى المعبد على انقاضه ، ويخشى أن يتعرض القبر الشريف والمسجد الحرام لغارات العدو وقنابله ، وقد سمعنا أن متحدثا من قادتهم أنذر بذلك ، لذلك لا يسوغ للعرب أن يعتبروا كفاحهم من أجل قومية عربية بل يجب أن يكون جهادا دينيا اسلاميا ، كما أن على المسلمين خارج الأمة العربية أن يتيقظوا الى الخطر الذى يهدد اماكنهم المقدسة ويتعرض بالتالى لشرف دينهم ومستقبل اسلامهم .

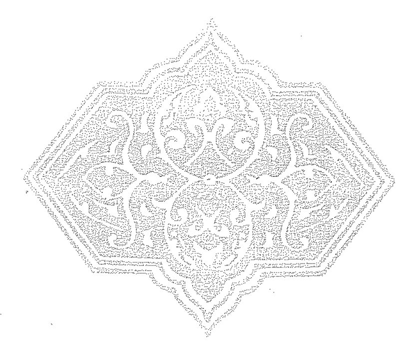
والحقيقة الأخرى هى أن الصهيونية ليست عقيدة يهودية محضة بل فلسفة يهودية تؤديها وتعتنقها المسيحية الغربية يتزعمها اليهود ومن خلفهم ساسة المسيحية الاوربية وأموالها وعتادها ، ويجب أن نذكر أن الخصومة بين الاسلام والمسيحية الغربية أمر قديم بدأ منذ قهرها الاسلام فى القرن السابع الميلادى واوقف امتداد نفوذها السياسى شرقا بل ازاله من بلاد الشرق الاوسط كله ، لقد تعايشت المسيحية الشرقية مع الاسلام منذ ذلك الحين فى سلام وذلك لما ابداه الاسلام من مبادىء العدل والتسامح ولكن المسيحية الغربية المنهزمة لم تحتمل الصدمة بسهولة بل أبطنت حقدها على الاسلام ونقلته الى اجيالها الناشئة جيلا بعد جيل ، عن طريق تغذيتها بافكار مسمومة واتهامات باطلة عن الاسلام وكتابه وحياة رسوله ، ثم تحينت للاسلام الفرص حتى واتتها أيام زحف المغول على الجناح الشرقى من الخلافة الاسلامية فحملوا على الجناح الغربى منها حيث حشدوا جيوشهم واساطيلهم فيما سمى بالحروب الصليبية وارتكبوا من الفواحش والمنكرات والتمثيل بالمسلمين ما يعجز عنه الوصف ، كما انتهزوا ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم فى أسبانيا فطردوهم منها بطريقة وحشية آثمة شنوا بها ما انطوت عليه قلوبهم من غل وأحقاد ، ولكن آمال المسيحية الاوربية فى الشرق الاوسط تحطمت على يد صلاح الدين الذى عاملهم معاملة كريمة نبيلة فما رضخوا ولا سكنوا بل ارسلوا جيوشهم فورا لاكتشاف موانى البلاد الاسلامية فى آسيا وجزر الهند الشرقية ليحتلوها بقوة السلاح وليذيقوا أهلها المسلمين الويلات وصنوف البلاء والتعذيب وليصرفوا أهلها المسلمين عن دينهم الحنيف الى المسيحية ان أستطاعوا ، ولما لم يستطيعوا اذاقوا أهلها الويلات وصنوف التعذيب دون رحمة أو شفقة .

لقد ضج الغرب كله هذه الايام ورفع عقيرته بالاتهام والغضب عندما تعرض الفدائيون الفلسطينيون لبعض الطائرات المملوكة لبلاد معادية وخشوا على حياة ركابها ، ونسوا أن اسلافهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر احرقوا سفنا تحمل حجاجا آمنين فى طريقهم الى البيت الحرام بمن فيها من نساء واطفال بل كانوا يصفرون ويسخرون ، يستمتعون بمنظر ضحاياهم

الذين اصبحوا وقودا لنيرانهم ، ولقد كانوا يضحكون من امهات استغثن بهم والقين اليهم باطفالهن فيقذفون بالاطفال المساكين فى النار كما يقذف الفحم للوقود ، اننا لا نبرر ايذاء آدمى ولا نرضى عنه ولكننا نود أن نذكر الغرب باعماله وما كسبت يده الآثمة وما تكسب ، الا تحرق اسرائيل بغاراتها عشرات الآدميين ومئاتهم وتهدم عليهم بيوتهم على مسمع من هؤلاء الذين يزعمون انهم اتباع المسيح واحباؤه ؟ لماذا لا يفوهون بكلمة انسانية طيبة ؟ لماذا يمدونهم بالاسلحة الفتاكة الاجرامية وهم يعلمون انها لتخريب المدن والقرى وقتل من بها من نساء وشيوخ وصبيان ؟

اننا لا نتهم المسيحيين جملة بالظلم والتعسف ، بل نحفظ الجميل لكثير منهم من اصدقائنا الذين عاشوا بيننا وشهدوا ابلغ أنواع الظلم والمكيدة تنزل بأهلنا وذريتنا ، انهم يحاولون الدفاع عن قضيتنا وان يصلوا الى اسماع أهليهم وقلوبهم بمنطق العدل والرحمة ، ولكن ابواق الصهيونية المدوية وعقائرها الوقحة العالمية ، وامكانياتها الواسعة واموالها الطائلة ونفوذها الجبار يطغى على صوت العدالة الخافت ويجرف بجبروته وعنفه اثر تلك الجهود لهذه البقية الصالحة الكريمة .

يساعد على ذلك تشتتنا وتفرقنا وخلافاتنا وانانيتنا وعجزنا حتى امام هذا الخطر الاعظم الذى يهدد ديننا وكياننا عن أن نتفق امام العالم على مواجهة العدو الخبيث ، وعصياننا فى صراحة فاضحة لتعاليم ديننا وارشاد كتابنا وهدى نبينا ، فكان لذلك خطران ، الاول أن الاجيال الاسلامية الناشئة التى تتلقى المعرفة والقيم من جيل الآباء والاجداد تعانى من تعارض عقلى ونفسى يجعل تاثير ما يتعلمونه سطحيا غير عميق ، ويعودهم على الاستهانة بهذه القيم والارشادات حيث يتعلمون شيئا ثم يجدون المشاهد مخالفا ومعارضا له ، فيمرض ضميرهم أو يموت ، ويهون عليهم العصيان والمخالفة ، فينذر ذلك بخراب الامة وضياع الدولة وفساد الجماعة ويفقد الامل فى اصلاحها واعادة هيبتها وضمان مصيرها ، كما أن العالم الخارجي يشهد حال المسلمين فيتهم الاسلام بانه دين يودى باهله الى القهقرى ولا يعينهم على مواجهة حاجات العصر ومقتضياته ، ولا ينهض بهم على التعاون والاتحاد أمام خطر يهدد مصيرهم ومصير تراثهم فينفرون منه ويزدرونه ، يحسبون سلوك الناس ومستواهم انعكاسا لدينهم ، ونتيجة لعقائدهم وتقاليدهم ، والاسلام فى ذلك — والله — لمظلوم !



منزلة العبادة في المسجد

منزلة المسجد الحرام بين المساجد . شد الرحال إليه .

تحديد المراد بالمسجد الحرام .

فضل الصلاة فيه .

العبادات الأخرى هل تضاعف ؟

الجوار فيه . الصد عنه .

الزيادات بعد العهد النبوي هل لها حكم المسجد الأول . ؟

الحرام والمسجد النبوي

للشيخ : محمد الأشقر

تتبين منزلة المسجد الحرام بين المساجد المبنية لله ، لمن يعلم (١) أنه أول مسجد فى الأرض بنى لعبادة الله . و (٢) أنه قبلة الصلاة والدعاء والدفن للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها مع اقتران ذلك بأن الاسلام ناسخ لما قبله من الشرائع . و (٣) أنه مخصوص بمزيد من العناية الالهية و (من يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم) سورة الحج / ٢٥ . و (٤) أن الحج اليه ركن من أركان الاسلام . و (٥) أن الصلاة فيه مأجورة بمائة الف صلاة فى ما سواه . و (٦) أن من دخله كان آمنا رعاية لحرمة الله وتعظيما لجنابه و (٧) أن الوحش والطير يأمن فيه مما يؤذيه ، بأمر الله الشرعى فيسرح ويمرح فى جواره آمنا . وكذلك النبات . و (٨) ان اشراع السلاح فيه للقتال ممنوع ولو على الكافر الا دفاعا عن النفس . و (٩) أنه يحرم السماح للكافر بدخوله لأن الكافر نجس ، والبيت مطهر . و (١٠) أن حرمه يستوى فيه العاكف والبادى من المسلمين . أى المقيم والغريب يستويان فى حقوق الاقامة فيه و (١١) أنه لا تشد الرحال الى مسجد من المساجد أو مكان من الامكنة بقصد زيارته والعبادة فيه ، ما عدا هذا المسجد والمسجد النبوى والمسجد الاقصى . و (١٢) أن تأسيسه كان على يد ابراهيم خليل الله واسماعيل الذبيح وفيه مقام ابراهيم والحجر الاسود و (١٣) أن فيه عبادة لا تصلح فى مكان آخر وهى الطواف والسعى . وبعض هذه الميزات ناشىء من بعض .

١ ــ أما الميزة الأولى ، فقد قال الله تعالى (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) سورة آل عمران / ٩٦ . وقال ابو ذر للنبى صلى الله عليه وسلم : أى مسجد فى الأرض وضع أول ؟ قال «المسجد الحرام» قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة » رواه البخارى ومسلم (ابن كثير ، التفسير ، سورة آل عمران /٩٦) وأوضح ما قيل فى تفسير ذلك أن ابراهيم بنى البيت الحرام ، ويعقوب بنى المسجد الأقصى ، ويعقوب حفيد ابراهيم فالمدة بينهما قريبة .

٣ — واما القبلة فبقول الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) البقرة / ١٤٤ .

٤ — واما الحج فبقول الله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) سورة آل عمران / ٩٧ مع قول النبى صلى الله عليه وسلم « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وحج البيت وصوم رمضان » رواه البخارى ومسلم .

٥ — واما مضاعفة الصلاة فيه فتأتى فى اواخر هذا البحث .

٦ ، ٧ ، ٨ — واما الا من فيه للبشر والحيوان والنبات فلقول الله تعالى (ومن دخله كان آمنا) سورة آل عمران / ٩٧ وقوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) سورة البقرة / ١٩١ . وقوله (أو لم يرو انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) سورة العنكبوت / ٦٧ . مع قول النبى صلى الله عليه وسلم « مكة حرمها الله تعالى ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة « وفى لفظة » « ولا يصاد صيدها » .

٩ — ومنع المشركين من دخوله لقول الله (انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) سورة التوبة / ٢٨ .

١٠ — وأما استواء المواطن والغريب فى حقوق الاقامة فيه ، فلقول الله تعالى (أن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) سورة الحج / ٢٥ .

١١ — واما جواز شد الرحال اليه والى المسجدين النبوى والاقصى للعبادة دون المساجد الأخرى فلقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » رواه البخارى ومسلم .

١٢ ، ١٣ — وأما تأسيسه على يدى ابراهيم خليل الله واسماعيل الذبيح بأمر الله ، والطواف فيه والسعى فلقول الله (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) سورة البقرة / ١٢٥ ، ١٢٧ .

هذا وانما ذكرت من الادلة اصرحها ولم اقصد الحصر .

تحديد معنى (المسجد الحرام) : باستقراء مواضع ورود هذا اللفظ فى الكتاب والسنة نجده (١) احيانا يعنى به (الكعبة) فقط دون ما حولها (٢) واحيانا يعنى به (الكعبة وما حولها مما هو مهيأ ومعد للصلاة فيه) فقط دون ما حول ذلك من أرض مكة وحرمها .

(٣) واحيانا يعنى به (مكة كلها وما حولها من حرمها) .
(٤) واحيانا أخرى يدور اللفظ بين هذه المعانى الثلاثة .

مثال الأول : قول الله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) مع قول ابن عباس عن الكعبة (البيت كله قبلة) .

٢ ــ ومما عنى به مسجد الصــلاة المحيط بالكعبة قوله تعالى (اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ...) سورة التوبة / ١٩ . وقوله تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) فليس المقصــود به كل الحرم المكى . والا لقال (ولا تقاتلوهم فى المسجد الحرام) .

٣ ــ ومما عنى به (الحرم المكى كله) قوله تعالى / (سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام ...) سورة الاسراء / ١ . على رواية من روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ليلة الاسراء يبيت فى بيت ابنة عمه أم هانىء بنت ابى طالب . وهو طبعا خارج مكان الصلاة .

وغالب ما ورد من ذكر (المسجد الحرام) دائر بين هذه المعانى الثلاثة دون تحديد (١) ومثال ذلك (ان الذين كفروا ويصدون عن ســبيل الله والمسجــد الحرام) (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) (انما المشركون نجس فــلا يقربوا المسجد الحرام) .

وانمــا دار اللفظ بين المعــانى الثلاثة لأن (الكعبــة) بنيت لأجــل أن يصلى فيها فهى (المسجد الحرام) ثم حدد حولها مكان للصلاة فهو (المســجد الحرام) وكل مكة وعمرانها ومساكنها انما انشئت وتوسعت وتتوسع **لأجل** الكعبة والصلاة فيها وخدمتها وخدمة ضيوفها . وهى حريم (البيت الحرام) أى فناؤه الملحق به الآخذ حكمه كما أن لكل بيت (حريما) . ولذلك لولا (الكعبة) لم تكن (مكة) فما احراها اذن بهذه التسمية (المسجد الحرام) .

انطباق احكام المسجد الحرام على المعانى الثلاثة :

(١) هناك احكام تتعلق بالمسجد الحرام من ناحية كونه مســجدا ، فهى تنطبق على المكان المعد للصلاة حول الكعبة ولا ينطبق على باقى اجزاء مكة وما حولها . وذلك كتحريم البيع والشراء فى المسجد . وتحريم قضــاء الحاجة فى المسجد . وتحريم انشاد الضالة فى المسجد . ووجود المصلين المقتدين بامــام صلاة الجماعة فى المسجد . ونحو ذلك .

(٢) وهناك احكام تتعلق بالمسجد الحرام من ناحية كونه محرما بأمر الله ، وأن تعظيمه يبتغى به وجه الله ، فهذه تنطبق على مكة وما حولها . وذلك كأمن الداخل فى الحرم وأمن حيوانه ونباته ، وتحريم أخذ اللقطة فيه . ومضــاعفة العقوبة لمن ألحد فيه واتخذه مكانا للمعصــية ، أو صد الناس عن القدوم اليه واعاقهم عن ذلك .وحرمان المشركين من دخول المسجد الحرام واستواء الغريب والمواطن فى حقوق الاقامة فيه .

(٣) وهنالك احكام تدور بين الناحيتين السابقتين وذلك كما ورد فى الحديث « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى ما سواه الا المسجد الحرام » رواه البخارى / ك ٢٠ ب ١ ومسلم . وفى لفظ فى غير الصحيحين « وصــلاة

فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فى هذا) فهل الصلاة فى بيوت مكة وسائر بقاع الحرم مأجورة بمائة ألف صلاة فى المواضع الأخرى ؟

فقيل (١) أن ذلك الفضـــل فى الصلاة هو لكل مكة وحرمها . وممن قال بذلك عطاء بن أبى رباح رواه عنه الطياسى كما ذكره فى فتح البارى . وقدمه ابن حجر فى الفتح وصححه النووى (فتح البارى ك ٢٠ ب ١) .

وقيل (٢) أن ذلك الفضل خاص بالموضع الذى يصلى فيه دون البيـــوت وغيرها من أجزاء الحرم . وقد قرره المحب الطبرى ، واحتج له بقول النبى صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه » فجعل الفضل لنفس المسجد لا لكل المدينة ، فينبغى أن يكون الأمر بمكة كذلك .

والذى جنح اليه ابن حجر مذهب حسن ، وخلاصته :

١ ــ أن صلاة الفرض بالمسجد فى مكة أفضل من صلاة الفرض فى بيوتها وفى غير حرمها .

٢ ــ وأن صلاة النافلة فى بيوت مكة أفضل من صلاتها فى المسجد الحرام .

٣ ــ وأن صلاة النافلة فى بيوت مكة أفضل من النافلة فى البيوت فى غير مكة .

وكان ذلك جمعا منه بين الحديث المشار اليه (صلاة فى مسجدى هذا ... الخ) والحديث الآخر (خير صلاة المرء فى بيته الا المكتوبة) .

حكم الزيادات المضافة الى المسجد الحرام : ان كل ما أضيف الى المسجد الحرام من الزيادات فله ــ ان شاء الله ــ فضل المضاعفة المذكورة فى الحديث السابق ، لأنها بضمها الى (المسجد) اصبحت (مسجدا) وهى (حرام) لأنها من الحرم ، فان نص الحديث أن (صلاة فى المسجد الحرام خير من ..... الخ) ولا خلاف فى ذلك ــ فيما نعلم ــ بحمد الله .

حكم الزيادات فى المسجد النبوى : أما الزيادات فى المسجد النبوى فهل تعتبر من المسجد النبوى فى حكم المضاعفة فيه .

نقل ابن حجر عن النووى أنه قال : ينبغى أن يحرص المصلى على الصلاة فى الموضع الذى كان فى زمانه صـــلى الله عليه وسلم دون ما زيد فيه بعده ، لأن التضعيف انما ورد فى مسجده ، وقد اكده بقوله (هذا) . هذا قول النووى . ونقل مثله عن أبى الوفاء ابن عقيل الحنبلى . والذى يظهر لى غير هذا ــ والله اعلم ــ لما يلى :

أن ميزة المسجد النبوى أنما جاءت ، والله اعلم ، من كونه أسس على التقوى على يدى نبى كريم كما أن مسجد مكة أسس على يدى ابراهيم واسماعيل كما ذكر الله عنهما أنها بوأ لهما مكان البيت ، وأمرهما برفع بنيانه ، وتطهيره من الشرك ، ليعبد الله فيه . فلما كانت الاضافات فى مســـجد مكة تابعة فى الحكم للمسجد الأصلى لأنها تؤدى نفس الغرض ، فكذلك ينبغى أن يكون الامر بالمدينة .

وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم (صلاة فى مسجدى هذا) وتأكيده بقوله (هذا) فيظهر والله أعلم أن كلة (هذا) لم يقصد بها نفى مضاعفة الاجر فى الاضافات الحادثة ،ولكن لئلا يظن أن المقصود كل مسجد بناه النبى صلى

الله عليه وسلم كمسجد قباء ومسجد الفتح وغير ذلك . فأما الاضافات فهى من المسجد قطعا ، بدليل أنه لو صلى رجل فيها ثم أقسم بالله أنه صلى فى المسجد النبوى لكان قسمه صادقا. وبهذا يتضح ما فى قول النووى من التناقض لتفرقته بين المسجدين النبوى والحرام فى أمر واحد ، شمله حديث واحد .

ومهما قيل فى الاضافات فى المسجد النبوى فلا ينبغى أن يغفل عن أن الاضافة التى فى جهة القبلة ـ اعنى أمام المحراب النبوى الى جدار القبلة الآن ، انما زادها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والصحابة متوافرون ، واتفقوا على ذلك ، وكان قيام عمر رضى الله عنه فى الصلوات الخمس اماما بالصحابة ، فى تلك الزيادة . وكانت الصفوف الأول التى هى أفضل الصفوف تقوم فى تلك الزيادة . فهل يظن بهم أنهم كانوا يعتقدون أن الصلاة فى غير موضعهم أفضل ؟

هذا ، واذا علم أن النبى صلى الله عليه وسلم أشار فى حياته بالزيادة فى المسجد علمنا أن تلك الزيادة التى فى القبلة لها حكم المسجد من كل وجه . وذلك ما رواه الامام أحمد أن عمر قال : لولا أن سمعت النبى صلى الله عليل وسلم يقول « ينبغى أن نزيد فى مسجدنا » . مازدت . ورواه غير الامام أحمد أيضا .

اذن فالقول بأن الزيادة فى المسجد له حكم المسجد الأصلى تصح نسبته الى الصحابة ، الذين صلوا فى المقدمة . ولم ينقل أن أحدا منهم أنكر ذلك فيما نعلم ، وذلك ينبغى أن يكون اجماعا . ولذلك قال ابن فرحون : لم يخالف فى هذه المسألة غير النووى . ونقل المحب الطبرى أن النووى رجع عن هذا القول . (انظر : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١ / ٣٥٧ وما بعدها) .

ومن هذا يتبين خطأ قوم يتركون الصلاة فى الصفوف الأولى فى المسجد النبوى ويتأخرون الى الصفوف المتأخرة ، وكثيرا ما تنقطع الصفوف فيما بين ذلك ، مع قول النبى صلى الله عليه وسلم « من وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله » (الحاكم والنسائى عن ابن عمر الجامع الصغير) وكأن هؤلاء يستنكرون ما فعله عمر رضى الله عنه وصحابة رسول الله معه ، الذين هم اعلام الدين ونجوم الهداية . وقد قال الله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

وما هى الحجة التى بأيدى هؤلاء الذين يتركون الصفوف المتقدمة رغبة عنها ؟ ليس لهم دليل منير ولا حجة قائمة . وهم لا شك قد حملهم حبهم للنبى صلى الله عليه وسلم ومسجده على ذلك ، ولكنهم فعلوه على غير هدى ، وبغير دليل . فهى محبة غير مستبصرة . وأكمل العمل ما كان على طريق واضحة . وأصدق المحبة ما حمل المحب على أن يتبع طريق المحبوب . وقد قال الله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) والله أعلم .

---

(١) هذا بخلاف لفظ (الكعبة) (والبيت الحرام) فهما لفظان خاصان بالبنية التى يطاف حولها . وبخلاف لفظ (الحرم) فان المقصود به مكة كلها وما حولها الى (الاميال) المعروفة .

ومما يجدر التنبه له أن بعض الناس اذا كان بمكة يقول دخلت (الحرم) يعنى به دخوله (المسجد) . وهذا استعمال غير سديد . كما أن بعض الناس يطلق لفظ (الحرم) على مساجد أخرى فيقول (حرم الاقصى) ، أو (الحرم الزينبى) أو غير ذلك ، وهذا أيضا خطأ ، فان ابراهيم حرم مكة ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم حرم المدينة ، فهما الحرمان الوحيدان فى الاسلام يحرم صيدهما ونباتهما .

فلينظر الإنسان مم خلق

٣

وأثر هذه النظرة في تثبيت العقيدة وتقويم الخلق

للدكتور : محمد سلام مدكور

((أطوار الجنين فى الرحم))

بينا قبل الصلة الوثيقة بين الانسان وأمه الارض وتنوع الآيات التى أشارت الى خلق الانسان ، وكيف خلق الانسان الأول من الطين ، وأشرنا الى النظريات التى قيلت بالنسبة لأصل خلق الحياة البشرية وأشرنا الى ما خرج عن دائرة الجنين كخلق آدم من طين ، ثم خلق حواء من ضلع آدم ، وخلق عيسى من غير أب ، وكل ما جاء على غير السنة الكونية ولا يندرج تحت هذه الآية ، وسنبدأ الكلام هنا عن أطوار الجنين .

الجنين هو المادة التى تتكون فى الرحم من عنصرى الحيوان المنوى والبويضة ، وسمى جنينا لاستتاره . فالجنين فى أصل اللغة المستور فى رحم أمه بين ظلمات ثلاث كما يقول الله تعالى (١) : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » ، والأطوار التى يمر بها الانسان فى الرحم قبل خروجه الى الحياة وانفصاله عن أمه بينها الله سبحانه فى قوله (٢) : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين » وسنقتصر هذا المقال على الكلام عن (النطفة فى القرار المكين) .

جاء فى اللغة : النطفة ماء الرجل والمرأة ، ويعبر القرآن عن النطفة فى بعض آيات التكوين بقوله (٣) فى الآية التى ندور فى فلكها : « خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » ويقول (٤) « أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى » وبقوله (٥) : « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » وبقوله (٦) : « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » .

وقد وصف العلماء تلك النطفة بأنها جسم متناسب الأجزاء يخلق الله فيه أعضاء مختلفة وطباعا متباينة . وهذا الكلام يشير الى مظهر من مظاهر قدرة الله وعظمته فى تخليق هذه المتباينات المختلفة الصور والوظائف من تلك المادة ، ينقل البستانى فى دائرة معارفه عند كلامه عن الجنين (٧) عن كتاب العرب « القوى كلها موجودة فى نفس النطفة فاذا أخذت فى العقل أول الأمر أمعنت أمعانا فصيرتها لحما ، ثم أمعنت فتكونت الأغشية والأوعية التى فيها باحداث النفخ ثم بتحرك جميع القوى فيها .. وتعمل كلها عملها فى وقت واحد لا على التوالى » .

وقد أختلف المفسرون فى معنى النطفة . فذهب قليل منهم الى أنها نطفة الرجل وحده اذ الدفق لا يكون الا فى ماء الرجل . والذى عليه جمهور العلماء والباحثين من المفسرين — وأيده علم الأجنة فى الطب الحديث — أن هذه النطفة تخرج من صلب الرجل وترائب المرأة وأيده من رأى ذلك من المفسرين بالسنة النبوية الكريمة فيما ورد فى وصف الجنين بالذكورة والأنوثة اذ يقول عليه السلام : « اذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكرا .. واذا غلب ماء المرأة يكون أنثى » وواضح من هذا الحديث أن الجنين يتكون من النطفة المتزجة من ماء الرجل وماء المرأة ، ولم يثبت أن الدفق خاص بماء الرجل وأن الدفق يتحقق فى ترائب المرأة عندما يبدأ انفصاله منها .

وأما علم الأجنة فى الطب الحديث فان المشتغلين به متفقون على أن الحمل لا يتحقق الا نتيجة اتصال الحيوان المنوى من الذكر بالبويضة ، التى يفرزها مبيض المرأة وأن كان بعضهم يذهب الى أنه لا يسمى نطفة الا قبل اتصال ماء الرجل بالبويضة ، يقول الدكتور نجيب محفوظ فى كتابه « فن الولادة » (٨) « الحمل نتيجة اتحاد عنصرى التوليد فى الذكر والانثى أى الحيوان المنوى والبويضة أى البويضة الملقحة ، والتلقيح هو قذف الحيوانات المنوية فى البويضات الأنثوية ، ويتم التلقيح أما خارجيا أو داخليا ، والتلقيح الخارجى يحدث عادة فى الحيوانات المائية . فتقوم الأنثى بوضع البيض فى الماء ثم يرشه الذكر بالسائل المنوى الذى يحتوى على الحيوانات المنوية . وأما التلقيح الداخلى فيحدث فى الديدان والحشرات والحيوانات الثديية ومنها الانسان ، وفى هذا النوع من الاخصاب تصب الافرازات الجنسية الذكرية فى داخل الفتحات الجنسية الانثوية وعملية الاخصاب تحدث عادة بواسطة حيوان منوى واحد ، وفى بعض الاحيان يشترك فى عملية الاخصاب عدة حيوانات منوية . ونتيجة لاتحاد البويضة بالحيوان المنوى يتم الاخصاب وتتكون خلية

مخصبة تحتوى على صفات كل من الأبوين وتنتقل بالوراثة الى الكائن الحى الجديد .

على أن التلقيح لا يحدث وقت وصول أول حيوان منوى اليها بل بعد وصول جملة من الحيوانات بجوارها ، وكأنما البويضة تتردد فى اختيار رفيقها ، وباتصالهما يتحدان ويتقرر نوع الجنين وشخصه وصفاته المتوارثة من أبويه بارادة الله . ففى هذه البويضة الملقحة تكمن الطاقة التى تجعلها تتطور وتنمو الى حيوان كامل وفيها الصفات حلوها ومرها ، وفيها قوة العقل وقوة الجسم ، وفيها يكمن كل ما يتصل بهذا الجنين .

وهذا التلقيح يحدث فى الثلث الأعلى لقناة « فالوب » بالنسبة للمرأة ، ثم تستمر البويضة الملقحة فى سيرها متجهة الى الرحم ، وفى طريقها اليه تنقسم ويستمر انقسامها بنظام دقيق حتى تتطور من خلية واحدة الى مجموعة خلايا تصل الى ست عشرة خلية فى أربعة أيام ، ويطلق عليها فى هذه المرحلة من مراحل النمو اسم الجرثومة التوتية لما بينها وبين ثمرة التوت من شبه ، وعند هذه المرحلة تكون قد وصلت الى فراغ الرحم ، وهى محاطة بدائرة من الخلايا ، وتحاط هذه الدائرة بالغشاء الذى كان يحيط بالبويضة أصلا . ثم تلتصق بجدار الرحم فتفقد الحركة بحرية ويكون هذا فى اليوم الثامن تقريبا . وبذلك يبدأ الحمل فى القرار المكين — الرحم — .

ومعنى كون الرحم مكينا أنها متمكنة ، فهى لا تنفصل لثقل حملها ، ولا تمج بما داخلها ، وهو كناية عن جعل النطفة مصونة . وهذا يشير الى أن الله سبحانه لم يهمل تلك النطفة منذ أول طور من أطوارها ، ولكنه هيأ لها ذلك المكان يحملها ويحميها ويضطلع بأعبائها التى تلاقيها حتى ينتهى بها الى آخر المراحل باخراجها منه على أنه برغم ذلك باق على مكانته ، معد لاستقبال غيرها من الوافدين حتى يرحل كما رحل النازل الأول ، ولهذا لفت الله سبحانه الانظار والبصائر الى موضع العبر والقدرة .

ومدة رحلة النطفة حتى تستقر فى الرحم بالعلوق فى جداره هى ثمانية أيام على ما قال الاطباء ، أما علماء الشريعة فان من خاض منهم فى تحديد هذه المدة تأثر بظاهر حديث الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك .. » الحديث . فقال : ان طور النطفة يكون أربعين يوما .

والواقع أن الحديث روى برواية أخرى نصها : « أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك .. » ولا معنى لقيد (فى ذلك) : الا ما تفيده دلالة الالفاظ وهى أن طور العلقة يكون فى أثناء المدة الاولى ، وكلمة ثم حينئذ تكون للترتيب الذكرى لا للترتيب الخارجى حتى لا يكون هناك منافاة بين كلمة (ثم) وكلمة فى ذلك .

واذا أخذنا بهذا القيد الوارد فى هذه الرواية كان معناه أن مرحلة العلقة فى نفس المدة الاولى ، فيمكن تفسير بدئها بما ذهب اليه الاطباء ، وبه يتفق

الحديث مع الطب فلا يكون هناك ما يدعو الى رفض ما قال به الطب ولا التوقف فى دلالة الحديث ولا يكون هنالك تناقض بين ما قاله الطب وما دل عليه الحديث ، واذا فان الطب مع دلالة الحديث . واذا ما لاحظنا أن الحديث يفيد أن الروح لا تنفخ الا بعد مائة وعشرين يوما كما هو اجماع المفسرين وقد أيده العلم الحديث . فاننا نقول : ان أصل معنى كلمة (ثم) يدل على التراخى ، ومعنى التراخى تأخر المدة الثانية عن الاولى فترة من الزمن فلتكن هذه الفترة هى المتممة للأربعة أشهر ، ويؤيد ذلك أن هناك بعض المراحل التى لم ينص عليها الحديث وهى مرحلة العظام واللحم فلتكن هذه فى مدة التراخى المشار اليها بثم الأخيرة فى الحديث ، وليكن نفخ الروح بعد ذلك .

ويؤيد ما اتجهنا اليه ما قاله الامام الرازى (٩) نقلا لتصوير الاطباء فى عهده لمراحل الجنين : من أن الجنين يصير علقة بعد خمسة عشر يوما ، ثم تتميز الرأس والقلب والكبد فى صورها فى اثنى عشر يوما ثم تنفصل الرأس عن المنكبين والاطراف عن الضلوع ، وفى تمام الاربعين يوما يتم انفصال الاعضاء .. وأن هذه المرحلة هى مرحلة التجمع التى يشير اليها حديث « أنه يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما .. » .

وقد يكون من المناسب أن نشير هنا الى ما قاله الفقهاء بالنسبة للأحكام الشرعية التى تتعلق بالنطفة وان ذلك وان كان يخرج بنا عن موضوع النظر والتأمل فى خلق الله فان فى طبيعة دراستى الفقهية ، وطبيعة مجلة (الوعى الاسلامى) ما يشجعنى بل يدفعنى الى ذلك ، ولا يجعل تناول هذه الاحكام أمرا استطراديا ، فليكن بجانب النظر والتبصر الوقوف على الاحكام الشرعية العملية التى نحتاج الى تعرفها فى عباداتنا وأعمالنا .

ومن هذا الكلام عن حكم طهارة أو نجاسة المنى ــ وهو السائل الخارج من الجهاز التناسلى من الانسان بلذة واشتياق ، وهل اذا أصاب الجسم أو الملابس أو المفروشات أثناء احتلام أو مداعبة فهل هو نجس يتنجس به الموضع الذى اتصل به فيجب غسله وتطهيره أو يكتفى بفركه أو هو طاهر وتجزىء الصلاة معه ؟

وخلاصة آراء الفقهاء فى هذا : أن مذهب أصحاب الرأى أنه نجس ويجزئه فرك يابسه لحديث السيدة عائشة أنها كانت تغسل المنى من ثوب رسول الله ، وقد جاء الفرك أيضا فى رواية عنها أن النبى صلوات الله عليه قال فى المنى يصيب الثوب: «ان كان رطبا فاغسليه وان كان يابسا فافركيه » ومذهب الشافعى والمشهور عن أحمد ومذهب الظاهرية أنه طاهر ، وقال مالك انه نجس ويجب غسله ، وهو المروى عن الزيدية والشيعة الجعفرية وفقهاء الأباضية .

وتنقل بعض كتب الحنابلة عن الامام أحمد أنه فرق بين منى الرجل وما ينزل من المرأة فقال : انما يفرك منى الرجل ، أما منى المرأة فلا يفرك لأن الذى للرجل ثخين والذى للمرأة رقيق فلا يبقى له جسم بعد جفافه يزول بالفرك فلا يفيد الفرك فيه شيئا .

والقائلون بنجاسة المنى مطلقا لا بد عندهم من غسل منى المرأة أيضا

رطبا كان أو يابسا ، والقائلون بطهارته قالوا : يستحب غسل منى المرأة كما يستحب فرك منى الرجل . وينص الحنفية على أن «نجاسة المنى عندنا مغلظة ويطهر محل المنى اليابس عندنا بالفرك ، ولا يضر بقاء أثره كبقاء أثره بعد الغسل ولا فرق بين منى الرجل ومنى المرأة » وهناك تفصيل فى كتب المذهب .

ونصت كتبهم أيضا على أنه لا فرق فى هذا الحكم بين منى الآدمى ومنى غيره ، ونقل ابن عابدين عن الطهطاوى أن منى كل حيوان نجس والرخصة بالفرك وردت فى منى الآدمى على خلاف القياس .. بينما ينص الشافعية على أن «المنى طاهر من جميع الحيوانات الا الكلب والخنزير أما منى الآدمى فلحديث عائشة وأما منى غيره فلأنه أصل حيوان طاهر فأشبه منى الآدمى . ثم قالوا : ويستحب غسل المنى» . وينص المالكية على أن « النجس منى ، ومذى ، وودى من الآدمى ، أو حيوان محرم الأكل ، أما المباح أكله فقيل بنجاستها وقيل بطهارتها » ..

والى لقاء آخر لنتكلم عن مرحلة التخلق ان شاء الله حتى يكمل النظر ويتم التبصر .

---

(١) سورة الزمر آيـة (٦) .

(٢) سورة المؤمنون آية (١٤/١٢) .

(٣) سورة الطارق آيـة (٦ ، ٧)

(٤) سورة القيامة آيـة (٣٦ ، ٣٧) .

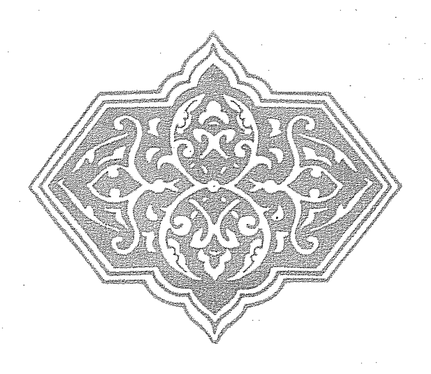
(٥) سورة فاطر آيـة ١١ .

(٦) سورة يس آيـة ٧٧ .

(٧) جـ ٦ ص ٥٦٩ .

(٨) فن الولادة ط ٤ . ص ٦٩ .

(٩) التفسير الكبير جـ ٢٣ ص ٨٤ .





للأستاذ : حسن القضاة

يسرنا أن نكتب هذه الترجمة القصيرة عن حسان بن ثابت الانصارى مستعرضين بايجاز حياته وشعره من خلال ديوانه ، ومفندين بنفس الوقت أو واضعين على بساط البحث والحقيقة تلك الفرية — بل الفريات — التى أوردها كثير من الرواة والاخباريين حول شخصيته ، لا سيما وأن سيرة هذا الشاعر الكبير مرتبطة — الى حد بعيد — بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لقد دعى بشاعر الرسول .

فمن هو حسان بن ثابت ؟!

نسبه :

نسبوه لأبيه فقالوا : هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج ، وينتهى نسبه بيعرب بن قحطان .

ونسبوه لأمه : الفريعة بنت خالد بن حنيس بن لوذان بن عبدون بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج . واذن فهو خزرجى من جهة أبيه وأمه معا .

عمـــره :

بالرغم من أن معظم الرواة اتفقوا على أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما الا أنهم اختلفوا فى سنة وفاته (١) فمنهم من قال : انه توفى فى السنـــــة الاربعين من الهجرة ، ومنهم من قال : بل فى السنة الخمسين ، وآخرون : فى سنة أربع وخمسين .

أما الطبرى فقد وضعه فيمن توفوا فى السنة الثمانين من الهجرة .

ونحن يمكننا أن نعتبر الرواية التى تقول بوفاته فى سنة أربعين من الهجرة تقريبا هى الصحيحة حيث أن أخباره تتوقف فى أواخر عهد الخليفة الراشدى الرابع على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وان تحديدنا لسنة أربعين من الهجرة زمنا لوفاته يجعلنا نرفض فكرة أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما . فقد روى أنه عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان حسان يبلغ من العمر ستين عاما تقريبا ، ومعنى ذلك أنه عاش ما لا يزيد عن مائة عام ، ويكون بذلك قد ولد فى منتصف العقد السابع من القرن السادس الميلادى (٢) .

أســـــرته :

وحسان من أسرة كانت ذات شأن عظيم سواء فى الجاهلية أو الاسلام . فوالده ثابت بن المنذر ، حكمته قبيلتا الاوس والخزرج فى حرب (ســـمير) المشهورة فى الجاهلية ، والتى تقاتلت فيها القبيلتان بسبب فرس نحوا من عشرين سنة ، أوشك أن يفنى بعضهم بعضا . ولم يدرك حسان تلك الحرب ، ولكنه رد فيها على شاعر الاوس قيس بن الخطيم عندما فخر عليه بهذا اليوم (٣) وأخوه أوس بن ثابت ممن شهد العقبة مع السبعين من الانصار ، كما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين الخليفة الراشدى الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وهناك من الرواة من يقول : ان أوس بن ثابت شـــــهد بدرا ، وأحدا ، والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى فى خلافة عثمان ، ومنهم من يقول : انه قتل يوم أحد شهيدا . ويبدو أن الرأى الاخير هو الصواب اذ جاء فى قصيدة لحسان ما يشير الى استشهاد أخيه أوس هذا عندما قال :

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت شهيدا وأسنى الذكر منه المشاهد

أما الاخ الثانى لحسان فهو أبى بن ثابت ، وكان يكنى بأبى شيخ ، وقد شهد بدرا ، وأحدا ، وقتل يوم بئر معونة شهيدا فى صفر على رأس ســـتة وثلاثين شهرا من الهجرة .

وعرف لحسان أكثر من أخت ، اتفق الرواة فى اثنتين منهن ، وهما كبشة ولبنى بنتا ثابت بن المنذر (٤) وقد أسلمتا وبايعتا الرسول ، وحسن أسلامهما . أما الاخريان فهما فارعة وخولة بنتا ثابت بن المنـــذر ، فقد اختلفت الروايات فيهما (٥) .

كما عرف من زوجات حسان ثلاث ــ اثنتان تزوجهما قبل الاسلام ، وهما عمرة بنت صامت بن خالد من الاوس ، وشعثاء بنت سلام بن مشكم اليهودى ،

أو بنت كامن الاسلمية . وثالثة وهبها له رسول الله صلى الله عليه وسلم هى سيرين القبطية التى كانت هدية المقوقس حاكم مصر الى الرسول عليه السلام .

وعمرة هى التى أحبها حسان حبا عظيما . وحدث أن أسر الاوس مخلد بن صامت الساعدى ، فتكلم حسان فى أمره بكلام أغضب عمرة فعيرته بأخواله ، وفخرت عليه بالاوس ، وهو الخزرجى المتعصب ، وكان يحب أخواله ويغضب لهم ، فطلقها ، فأصابها من ذلك شدة ، وندم حسان بعد ذلك ندما شديدا (٦) .

يقول من قصيدة له مشببا بها :

أجمعت عمـــــرة صـرما فابتكر   انمـــــا يدهـــن للقلب الحصر (٧)
لا يكن حبـــــك خبـــا ظـــــاهرا   ليس هـــذا منك يا عمـــر بسر (٨)
ســـــألت حســـان من أخــــواله   انما يســـأل بالشىء الغمـــــر (٩)
قلت : أخـــــوالى بنـــو كعب اذا   أسلم الابطـــال عورات الدبر (١٠)
رب خــــال لى لو أبصــــــرته   سبط الكفين فى اليوم الخصر (١١)

وعمرة هى التى شبب بها قيس بن الخطيم الاوسى غريم حسان ومهاجيه فى الجاهلية عندما قال :

أجـــد بعمرة غنيانهـــا   فتهجر أم شأننا شانها ؟

وذلك لأن حسان كان يشبب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم فى شعره .

أما شعثاء فقد اختلف فى أمرها . قال بعض الرواة انها بنت سلام بن مشكم اليهودى ، وقال آخرون هى امرأة كانت تحت حسان ، وهى بنت كامن الاسلمية من خزاعة . وربما كان الرأى الاخير أقرب الى الصواب . ويبدو أنه لم يكن على وفاق زوجى معها فقد قال فى ابنه منها :

غلام أتاه اللؤم من شطر خاله   له جانب واف وآخر أكشم

فقالت تجيبه :

غلام أتاه اللوم من نحو عمه   ومن خير أعراق ابن حسان أسلم

أما الزوجة الثالثة فهى التى وهبها الرسول صلى الله عليه وسلم اليه ، وهى التى كانت هدية المقوقس حاكم مصر الى الرسول الكريم ، وأخت مارية القبطية زوج الرسول . وقد أخلف حسان من هذه الزوجة ابنه الشاعر المشهور عبد الرحمن الذى ورث الشعر عن والده .

واستمر يحمل لواءه مدة فى العصر الاموى .

ويذكر الرواة أن لحسان ابنتين : احداهما أم فراس ، وهى من زوجـــه شعثاء ، ولا نجد من أخبارها شيئا (١٢) ، أما الاخرى فهى ليلى بنت حسان التى يروى ابن عساكر فى تاريخه (١٣) عن الاصمعى أنه كان لحسان ابنة تدعى ليلى ، وحدث يوما أن كان حسان جالسا فبدا له أن يقول الشعر ، فقال :

أنمى الى افنــــاء عمــرو وعـــامر   سمت لمعاليهـــا وعـــزت كهولهـــا
متـــــاريك أذناب الامور اذا التوت   أخـــذنا الفـــروع واجتثثنـــا أصولها
الى أسرة طـــابت وعولى فرعهـــا   فليس لفـــرع غيـــرها أن يطولهـــا

ثم انقطع . فقالت له ابنته من الخدر : كأنك قد انقطعت ! فقال : نعم . فانثنت تقول :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنـــا   كرام يعـــاطون العشـــيرة ســـولها

فقال حسان :

وقافية عجت بليـــــل ثقيـــــــلة   تلقيت من جـــو الســـماء نزولهـــا
يهاب الذى لا ينطق الشعر سؤلهـــا   ويعجـــز عن أمثالهــــا أن يقولهـــا

ثم غضب على ابنته لقولها الشعر ، وقال : لهممت أن أحلف أن لا أقول بيت شعر ما دمت حية . فقالت : أنا أؤمنك ، والله لا أقول بيت شعر ما صحبتك .

كما يظن أن لحسان ابنا يسمى الوليد ، فقد كان يكنى بأبى الوليد ، واشتهر بذلك . ولكن الرواة لم يذكروا من شأن هذا الابن شيئا .

شخصيته :

ان ما يعنينا لدى التحدث عن شخصية حسان جانبان مهمان هما :

الاول : البحث فى صفاته الجسمانية التى جاءت متفرقة فى أخباره لدى كثير من الرواة .

والثانى : بحث تلك المسألة التى شغلت الباحثين على مدى الازمنة ، وهى الصاق تهمة الجبن به ، ومدى صحة هذا الاعتقاد .

فقد ذكر الرواة أنه كان لحسان ناصية يسدلها بين عينيه ، وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله ، ويقول : ما يسرنى به مقول أحد من العرب . والله لو وضعته على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه . ثم كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخضب سائر لحيته . وقد سأله ابنه عبد الرحمن يوما : يا أبت لم تفعل هذا ؟ فقال : لأكون كأنى أسد والغ فى دم (١٤) .

ومن هذه الرواية يتضح لنا مدى نفوذ حسان فى الجاهلية ، وخوف العرب من أهاجيه . لأن اللسان الذى يحلق الشعر ، ويفلق الصخر ، هو لسان تخافه القبائل وتحرص على أن تتقى شر صاحبه . وأما أنه كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ليكون كالاسد الوالغ فى الدم ، فهذا ما حاول الباحثون أن يتخذوه وغيره كمظهر من مظاهر الجبن .

روت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها بهذه المناسبة : أنها كانت فى فارع — أطم (١٥) حسان — يوم الخندق ، وقالت : كان حسان معنا فيه ، والنساء والصبيان ، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينا عنهم ، اذ أتانا آت فقلت : يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فقالت :

فلما قال ذلك ، ولم أر عنده شيئا احتجزت (١٦) ثم أخذت عمودا ثم نزلت اليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت : يا حسان انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل . فقال مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب (١٧) .

وقد وردت روايات أخرى تشبه الى حد كبير موقفه من القتال فى هذه الرواية ، وكلها تدل على أنه كان يخاف المشاركة فى قتال ، سيما وهو لم يساهم قط فى غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهل يعتبر هذا الخوف جبنا ، ألا توجد هناك علة أخرى تمنعه من الاشتراك فى الحرب ؟ قد يكون السن هو السبب ، فهذه الاخبار جميعا رويت عن حسان ، وقد بلغ الستين على الاقل . ورجل فى الستين من عمره قد يضعف عن أن يدخل حربا أو يساهم فى قتال (١٨) .

غير أن هناك سببا آخر أشار اليه صاحب الاغانى ، وهو أن أكحل (١٩) حسان كان قد قطع ، فلم يكن يضرب بيده (٢٠) ، وقال الواقدى مدافعا عن حسان وعن تهمة الجبن الموجهة اليه (٢١) : ان قومه كانوا يدفعون أن يكون جبانا ولكنه أقعده عن الحرب أن أكحله قد قطع ، فذهب منه العمل فى الحرب . ويؤيد هذا الرأى قول حسان نفسه :

أضر بجسمى مر الدهور وخان قراع يدى الاكحل
وقد كنت أشهد وقع الحروب ويحمر فى كفى المنصل

ويدفع الاصمعى عن حسان تهمة الجبن بقوله : الدليل على أن حسان لم يكن جبانا أنه كان يهاجى خلقا فلم يعيره أحد منهم بالجبن .

وجدير بالملاحظة أن الوقائع التى استشهد بها الاخباريون على جبن حسان كلها وقائع اسلامية ، وعلى هذا يمكن أن نرجح أن قطع أكحل حسان حدث فى الجاهلية ، أو قبل دخوله فى الاسلام . ولا شك أن مثل هذا السبب الى جانب كبر سنه ، وضعف روح المغامرة عنده ، يجعله حذرا متمهلا فى الوقت الذى نجد فيه شباب المسلمين وشيوخهم مندفعين بقوة الدين وبروح الرسول نحو الجهاد الذى كان المظهر الحقيقى للمسلم المؤمن فى هذه الفترة (٢٢) .

شعره الجاهلى :

لا نكاد نظفر بمصدر ينبؤنا بحياة حسان فى الجاهلية ، من حيث نشأته الاولى ، وبدء قوله الشعر ، وعن الاحداث المهمة أو الغزوات التى شارك فيها . واذ عرفنا أنه عاش ما يقرب من ستين عاما فى الجاهلية فاننا لا نستطيع — اذن — أن نصور شخصيته فى تلك الفترة المهمة من حياته — ولذا فلا بد لنا من أن نلجأ الى ما بقى من شعره الجاهلى ننقب فيه عن أبعاد تلك الشخصية .

وعلى الرغم من قلة هذا الشعر ، وما وقع فيه من اضطراب على مر السنين ، فانه يصور شخصية حسان القبلية ، تلك التى كانت لسان حال قومه الخزرج ، وصحيفتهم اليومية الناطقة باسمهم ، والمنافحة عنهم بأشعارها أمام أعدائها من القبائل الاخرى .

وقد استطاع أن يشيد بأيام الخزرج فى قصائده يوم الربيع ، ويوم خطمه ، ويوم بعاث ، وأن يقف من قيس بن الخطيم شاعر الاوس موقف المبارز .

اقتتلت الاوس والخزرج قتالا مرا بمكان اسمه الربيع ، حتى كاد يفنى بعضهم بعضا ، فقال حسان قصيدته :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها

فرد عليه قيس بن الخطيم — شاعر الاوس — معارضا :

أجد بعمرة غنيانها فتهجر أم شأننا شانها ؟

ولو قارنا القصيدتين لوجدنا أن حسان يقف فى بيتين من قصيدته متذكرا أحباءه ، ويصف فى بيتين آخرين واديا صعب الاجتياز فاجتازه — رغم عزيف الجن فيه — على ظهر ناقة هوجاء ، يسألها عن حال حبيبته وقد رحل أهلها عن

الديار ، ثم يتحدث بأبيات أخرى بلسان قومه معددا أمجادهم فيقول :

ويثـــرب تعـــلم أنا بهـــــا اذا التبس الحـــق ميزانهـــــا
ويثـــرب تعـــلم أنا بهـــــا اذا خـــافت الاوس جيرانهـــــا
فلا تفخـــرن والتمس ملجـــأ فقـــد عاد للأمس أديانهـــــا

بينما يبدأ قيس قصيدته المناقضة بالغزل فى عمرة بنت صامت زوج حسان وذلك فى خمسة أبيات منتقما بذلك من حسان فى التشبيب بها على طريقة الجاهليين . وبالرغم من أنه ينعتها بنعوت جميلة فى تلك الابيات الا أن ذلك يضايق العربى الشريف ويزعجه ، يقول قيس :

فمـــا روضـــة من ريـــاض القطـــا كأن المصـــابيح حوذانهـــــا (٢٣)
بأحسن منهـــا ولا مزنـــــــة دلوح تكشـــف أرجانهـــــا (٢٤)
وعمـــــرة من ســـــروات النســـا ء تنفـــح بالمسك أردانهـــــا(٢٥)

ثم ينتقل قيس بعد ذلك الى الفخر بلسان قومه كما فعل حسان :

نحن الفـــوارس يوم الربيـــــــ ـــع قد علمـــوا كيف فرســـانها
جنبنـــا الحراب وراء الصريـــ ـــخ حتى تقصف مرانهـــــا (٢٦)

ولم يقتصر حسان فى شعره الجاهلى على تمثيل القبيلة فحسب ، بل لقد زار ملوك الغساسنة ومدحهم . وكان اتصاله بهم اتصالا بذوى قرباه ، فقد يسر له نسبه فيهم أن يتردد على بلاطهم كثيرا ، وأن يجيزوه فى كل مرة . أما زيارته للمناذرة فقد اختلف فيها ، وان كان هناك ما يشير الى حدوثها .

وقد عرف أنه كان صديقا وفيا للأمير الغسانى جبلة بن الايهم . وقد مدحه بقصائد جيدة ، وعرف له جبلة هذا حتى بعد أن تنصر وسافر الى بلاد الروم . فقد حدث أن أرسل معاوية — فى أثناء ولايته فى الشام — رسولا اليه ليعود الى الاسلام ، فرد جبلة الرسول وقد سأله عن حسان ، فقال له الرسول :

شيخ كبير قد عمى . فدفع اليه جبلة ألف دينار ، وقال : ادفعهـــا الى حسان . قال الرسول : فلما قدمت المدينة ودخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فيه حسان بن ثابت فقلت له : صديقك جبلة يقرأ عليك السلام . قال : فهات ما معك . فقلت : يا أبا الوليد كيف علمت ؟ قال : ما جاءتنى منه رسالة قط الا ومعها شىء (٢٧) . وعن الاصمعى أن جبلة بعث اليه بخمسمائة دينار ، وكسى ، وقال للرسول : ان وجدته قد مات فابسط هـــذه الثياب على قبره ، واشتر بهذه الدنانير ابلا فانحرها على القبر . فوجده حيا فأخبره ، فقال حسان : لوددت أنك وجتنى ميتا (٢٨) .

وعندما ارتد جبلة عن الاسلام وتنصر دافع حسان عنه أمام الخليفة عمر . اذ أنه لمـــا علم عمر بارتداد جبلة صعب عليه ذلك ، وقال لحسان : يا أبا الوليد ، أما علمت أن صديقك جبلة بن الايهم ارتد نصرانيـــا ؟ قال : انا لله وانا اليه راجعون ، ولم ارتد ؟ قال لطمه رجل من مزينة . فقال حسان : وحق له . فقام اليه عمر رضى الله عنه بالدرة فضربه بها .

وربما كانت أهم قصيدة جاهلية بقيت لحسان فى مدح الغسانيين هى التى مدح بها الملك الغسانى عمرو بن الحارث ، وفيها تمكن من الوصول الى الذروة الفنية فى مدحه للغسانيين ، وفى وصفه لمجالسهم وندواتهم ، يقول :

لله در عصـــــابة نادمتهـــــم يومـــا بجلق فى الزمان الاول (٢٩)
أولاد جفنـــة عنـــد قبر أبيهـــــهم قبـــر ابن مارية الـــكريم المفضـــل

يســـقون من ورد البريص عليهـــم بردى يصفق بالرحيق السلسل (٣٠)
بيض الوجـــوه كريمـــة أحســـابهم شم الانـــوف من الطـــــراز الاول

اســــلامه :

مما لا ريب فيه أن شاعرنا قد تهيأ لاعتناق الدين الجديد فى الوقت الذى تهيأت فيه قبيلته . واذا كانت قبيلته الكبرى (الخزرج) عامة ، وقبيلته الصغرى (بنو النجار) بشكل خاص ، قد حالفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واستعدوا للدخول فى دينه قبل أن يهاجر الى مدينتهم ، فلا شك أن حسان قد حذا حذوهم هو الآخر .

ولكن .. هل كان اسلامه اسلام المؤمن الصادق بمعنى الكلمة أم مرحلة انتقال من دين الى آخر ، شأنه فى ذلك شأن من يتبع قبيلته فى كل أمر ولا يتخلف عنها أبدا ؟! كما أن الدارس لشخصيته عليه أن يتناول أيضا هـــذه الشخصية بالبحث من جميع جوانبها دون أن يترك فيها شبهة كتلك التى أثارها القدماء والمحدثون ، ولم يخلصوا فيها الى نتيجة ، وهو اشتراكه فى حديث الافك وتقوله فيه .

وقصة الافك كما وردت فى سيرة ابن هشام (٣١) وفى غيرها من كتب السيرة :

لـــا أن خرجت السيدة عائشة رضى الله عنها زوج الرسول عليه السلام فى غزوة بنى المصطلق مع جيش المسلمين ، وأثناء رجوع الجيش تخلفت عنه لقضاء حاجة ، فتأخرت وسبقها المسلمون الى المدينة . ثم وجدها صفوان بن المعطل السلمى ، وكان قد تأخر هو أيضا ، فأركبها ناقته ، ودخل المدينة ، فلما رآهما المنافقون تقولوا فى ذلك . وحزن الرسول عليه السلام حزنا شديدا حتى أنزل الله وحيه ببراءة السيدة عائشة وتكذيب المنافقين « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (٣٢) وتكاد تجمع كتب الاخبـــار والتفسير على أن هذه العصبة التى أشار اليها القرآن الكريم تتكون من عبد الله ابن أبى بن سلول ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، وحسان بن ثابت . وزادت بعض هذه الكتب أن الثلاثة الآخرين قد حدهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد كان للمسلمين موقف من هؤلاء المتقولين بحديث الافك ، سيما بعد أن ثبتت براءة السيدة عائشة من لدن رب العالمين . والذى يعنينا هنا موقفهم من حسان .

فقد هجا حسان يوما صفوان بن المعطل ، فذهب اليه صفوان واعترضه وضربه بالسيف . فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه الى عنقه بحبل ثم انطلق به الى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال : ما هذا ؟

قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ؟ والله ما أراه الا قـــد قتله ! قال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء ممـــا صنعت ؟ قال : لا والله . قال : لقد اجترأت ، أطلق الرجل . فأطلقه . ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان . فقال

صفوان : يا رسول الله آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : (أحسن يا حسان . أتشوهت على قومي أن هداهم الله للاسلام ؟) ثم قال : (أحسن يا حسان في الذي أصابك) . قال : هي لك يا رسول الله . ومن هذا يتضح أن حسان لم ينل عطف الرسول في هذه الحادثة .

وروى المحدث الاندلسي ابن عبد البر أن قوما ذكروا أن حسان كان ممن خاض في الافك على عائشة رضي الله عنها ، وأنه جلد في ذلك . ثم ان قوما آخرين أنكروا أن يكون حسان قد خاض في الافك أو جلد فيه .

أما حسان فقد حاول أن ينفي في شعره أنه خاض في هذا الحديث ، وذكر أن كل ما نسب اليه فيه انما هو محض افتراء واشاعة .

يقول في مدح السيدة عائشة :

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل

فان كنت قد قلت الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي الى أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل

فان الذي قد قيل ليس بلائط ... ولكنه قول امرىء بي ما حل

شاعر الرسول :

ومهما يكن من أمر فان الرسول عليه السلام وضع حسان في منزلة كبيرة من نفسه ، كما وضعت قصائد حسان صاحبها في منزلة كبيرة من نفوس المسلمين .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان : (لا يحبه الامؤمن ولا يبغضه الا منافق) ، وروى الاصفهاني وغيره : لما كان عام الاحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من يحمي أعراض المسلمين ؟. فقال كعب بن مالك أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة : أنا يا رسول الله . وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله . فقال عليه السلام : (نعم أهجهم أنت (يعني حسان) فانه سيعينك روح القدس) . وروى أيضا : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن . وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان فشفى واشتفى) .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع الى شعر حسان ، فقد سأل عنه مرة في سفر قائلا : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال عليه السلام : أحد . فجعل حسان ينشد والنبي صلى الله عليه وسلم يصغي ويستمع . فما زال يستمع اليه وهو سائق راحلته ، فلما فرغ من انشاده ، قال صلى الله عليه وسلم : (لهذا أشد عليهم من وقع النبل) ويعني بذلك المشركين .

لقد اعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسان في الرد على شعراء المشركين ، أمثال عبد الله بن الزبعرى ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب ، وعمرو بن العاص . واستطاع أن يكون ندا لهم وأن يتفوق عليهم .

وان اعتلاءه منصب شاعر الرسول الرسمي جعل المسلمين يصنعون له

منبرا خاصا فى مؤخرة المسجد ليقف فوقه ينشد شـعره الذى يذب به عن الرسول والمسلمين .

شعره الاسلامى :

ويعتبر شعر حسان الاسلامى تسجيلا حيا لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته . ولذا فقد اعتمد عليه شراح السيرة فى تفسير بعض ما غمض من تاريخ هذه الفترة ، وقد مدح الرسول بمعان كثيرة منها الجاهلى القديم ، ومنها الاسلامى المستحدث . واتخذ مدحه له صفة الفخر بالمسلمين جميعا وخاصة الانصار ، والرد على المشركين ومهاجاتهم ، وكان سلاحا خطرا فى أيدى المسلمين لا يقل عن أسلحتهم الحربية الاخرى .

وكان الرسول يدعو له قائلا : (اللهم أيده بروح القدس) .

قال من قصيدة مفتخرا بانتصار المسلمين يوم موقعة بدر الكبرى :

بكرت على بسحرة بعد الكرى ... وتقارب من حادث الايام
زعمت بأن المرء يكرب يومه ... عدم لمعتكر من الاصرام (٣٣)
ان كنت كاذبة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام (٣٤)
وبنو أبيه ورهطه فى معرك ... نصر الاله به ذوى الاسلام

وفى معركة أحد نراه يفخر باستشهاد أخيه أوس بن ثابت فيقول :

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت ... شهيدا وأسنى الذكى منه المشاهد
ومن جده الادنى أبى وابن أمه ... لأم أبى ذاك الشهيد المجاهد

ومن قصيدة مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ان الذوائب من فهر واخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله وبالامر الذى شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
ان كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

وقال من قصيدة يهجو فيها الوليد بن المغيرة ، من كبار مشركى قريش :

ان التى ألقتك من تحت رجلها ... وليدا لمجهال العشى خبوب
فمالك من كعب حصاة تعدها ... وان قلت من شجع فأنت كذوب
فمالك فى الركنين حق حجاجة ... ولا لك فى صهر النبى نصيب

وكان حسان قاسيا فى هجائه ، سيما اذا تعرض للأنساب فانه يقذع فيها ، والنسب عند العربى أهم ما يحرص عليه ويدافع عنه . فكان هجاء المشركين من خلاله أشد عليهم من وقع النبل ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأما فى الرثاء فاننا لا نجد خيرا من الابيات التالية فى رثائه للرسول صلى الله عليه وسلم :

بطيبة رسم للرسوم ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحى الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادى الذى كان يصعد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآى منها تجدد
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
وهل عدلت يوما رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد ؟

وهي قصيدة طويلة تدل على مدى حبه للرسول الكريم وللاسلام ، وعلى تأثره وتأثر المسلمين بموته صلى الله عليه وسلم .

وقد رثى حسان بعض شهداء المسلمين فى حياة الرسول ، أمثال سعد بن معاذ ، ونافع بن بديل ، وجعفر بن أبى طالب ، وحمزة وزيد بن حارثة ، وخبيب . ونجد له أبياتا فى الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد اختلف فيها ، فمن الرواة من قال : انها فى مدحه ، ومنهم من قال : انها فى رثائه :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها بعد النبى وأوفاها بما حملا
والثانى الصادق المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

كما انه رثى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما توفى بأبيات منها :

وفجعنا فيروز لا در دره بأبيض يتلو المحكمات منيب
رؤوف على الادنى غليظ على العدا أخى ثقة فى النائبات نجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله سريع الى الخيرات غير قطوب

وكان حسان ممن ذب عن عثمان قبل مقتله . وقد حفظ لنا ديوانه استصراخه المسلمين لأخذ ثأر عثمان :

شدوا السيوف بثنى فى مناطقكم حتى يحين بها فى الموت من حانا
لعلكم أن تروا يوما بمغبطة خليفة الله فيكم كالذى كانا
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
لتسمعن وشيكا فى ديارهمو الله أكبر يا ثارات عثمانا

ونلاحظ اتقاد العاطفة فى رثائه لعثمان رضى الله عنه ، على خلاف عادته فى رثائه لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما . بل انه ليهجو قومه من الانصار ، وخاصة بنى النجار لأنهم لم يدافعوا عن عثمان وأيدوا القتلة ، فيقول :

أوفت بنو عوف وأوفت نذرها وتلونت غدرا بنو النجار
وتخاذلوا يوم الحقيقة انهم ليسوا هنالكم من الاخيار
ونسوا وصاة محمد فى صهره وتبدلوا بالعز دار بوار

مما يدل على أن حسان كان متشيعا لعثمان ، بل ورد أنه كان واحدا ممن لعبوا دورا هاما فى حادثة مقتله ، فهو أحد الذين أقنعوا المصريين بالرجوع الى بلادهم ، كما جاء فى رواية الطبرى ، واستمر فى معارضة على بن أبى طالب كرم الله وجهه طوال فترة خلافته القصيرة . ولا نجد له بيتا واحدا فى مدح أو ذم أو رثاء الخليفة على ، اذ أن أخبار حسان تختفى بعد مقتل عثمان مما يؤكد انه مات قبيل موت على أو بعده مباشرة .

وفاته :

كان تطاحن الاحزاب وأحداث الفتنة قد شغلت المسلمين عن كل شىء ، فلم يفطن أحد الى وفاة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان بصره قد كف فى أواخر حياته ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاته ، مثلما اختلفوا فى تحديد سنة ولادته كما مر ، ولكن يمكننا أن نأخذ بالرواية التى تقول بوفاته فى سنة اربعين من الهجرة ، حيث أن أخباره تنقطع فى أواخر عهد الخليفة الراشدى الرابع على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

رحم الله شاعر الرسول .

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب — مادة حسان .
(٢) الدكتور سيد حنفى حسنين : أعلام العرب — حسان بن ثابت .
(٣) ابو الفضل ابراهيم والبجاوى : ايام العرب فى الجاهلية .
(٤) اختان لحسان من أبيه ، وأمهما سخطى بنت حارثة بن عبدود (الطبقات الكبير المجلد ٨ : ٣٢٩ طبعة أوربا) .
(٥) الاغانى ٣ : ٣٣ .
(٦) المخطوطة رقم ٢٥٣٤ من الديوان بمعهد مخطوطات الجامعة العربية : الورقة — ٧٥ .
(٧) الصرم : الهجر . ابتكر : عجل . الادهان : الخضوع . الحصر : الضيق .
(٨) عمر : ترخيم عمرة .
(٩) الغمر : المجهول .
(١٠) اسلم الابطال عورات الدبر — انهزموا .
(١١) سبط الكفين : سخى وكريم . اليوم الخصر : الشديد البرد . يقول : ان أخواله كرماء فى وقت الشدة والعسر .
(١٢) الروض الانف : ٢ : ٢٨٠ .
(١٣) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٣٤ .
(١٤) الاغانى ٤ : ١٣٥ .
(١٥) اطم : حصن .
(١٦) احتجزت : شددت ردائى على وسطى .
(١٧) الاغانى ٤ : ١٦٥—١٦٦ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٥٠ .
(١٨) الدكتور سيد حنفى حسنين : اعلام العرب : حسان بن ثابت .
(١٩) الاكحل عرق فى اليد (الفاضل للمبرد ص ١٣) .
(٢٠) الاغانى ٣ : ١٦٦ .
(٢١) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٢٦ .
(٢٢) الدكتور سيد حنفى حسنين : اعلام العرب : حسان بن ثابت .
(٢٣) الحوذان : نبت طيب الرائحة .
(٢٤) المزنة : السحابة البيضاء ، دلوح : كثيرة الماء . تكشف ادجانها : تكشف ظلمتها . وذلك بانزالها ما تحمل من الماء .
(٢٥) أردانها : أعطافها .
(٢٦) جنبنا الحراب : حملوا حرابهم بايديهم الى جنوبهم . الصريخ : المستغيث . المران : الرماح .
(٢٧) طبقات الشعراء لابن سلام .
(٢٨) طبقات الشعراء لابن سلام .
(٢٩) جلق : دمشق او موضع قريب منها .
(٣٠) البريص وبردى : نهران بدمشق .
(٣١) سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٠٨ ، الاغانى ٤ : ١٥٤ .
(٣٢) سورة النور : آية ١١ .
(٣٣) يكرب : يحزن من الكرب . المعتكر : الابل التى ترجع فى عدد غفير ، فلا يمكن عدها لكثرتها . والاصرام : جمع صرم ، وصرم جمع صرمة وهى القطعة من الابل ، ولعل يكرب هنا معناها يقرب ، فيكون معنى البيت زعمت بأن الرجل يقرب يومه ، اى اجله — الفقر . تامره بعدم الاسراف .
(٣٤) وكان قد فر من المعركة فى بدر .



تقويم أثر الفتاوى علمياً ومقارنتها بعمل جوستينيان في القوانين الرومانية

للأستاذ : أنور أحمد قادري

لعل من المفيد أن نلاحظ بأن الفتاوى العالمكيرية بالنسبة للفقه الاسلامى وتدوينه من حيث التفسير والتأويل والاجتهاد على أيدى العلماء والفقهاء يمكن مقارنتها بلوائح جوستنيان بالنسبة للقانون الرومانى الذى سبقها ، فنلاحظ مثلا بأن جوستنيان أصدر فى عام ٥٢٨ بعد الميلاد أوامره لأجل وضع المجموعة القانونية الجديدة التى تستند على المجموعات القانونية السابقة الموضوعة فى عام ٥٠٠ و٥٠٦ بعد الميلاد ، وقد عهد جوستنيان بهذه المهمة الى مجموعة مؤلفة من عشرة علماء قانونيين .

وبعد أن انتهى هؤلاء العلماء من عملهم فى شهر نيسان من عام ٥٢٩ م صادق الامبراطور على عملهم ، والغى جميع اللوائح القانونية السابقة ، الا أنه نظرا لمعرفة القانونيين الشاملة عن المشرعين القدامى فقد عمل الامبراطور فى شهر كانون الاول من عام ٥٣٣ م على تجميع ما يسمى مجموعة الفقه مؤلفة من خمسين كتابا . وكانت هذه العملية عبارة عن استخلاص حرفى لآراء ٣٩ مشرعا كان أشهرهم المشرعين بول وأولبيان ، على أنه لما كانت هذه المجموعة كبيرة الاتساع ، وبغية وضعها بشكل يمكن من جعلها كتابا مدرسيا ، فقد عين الامبراطور بعض الاساتذة البارزين فى مدارس الحقوق فى القسطنطينية وبعض المدن الاخرى لكى يعملوا على وضع كتاب ابتدائى سمى فيما بعد (بكتاب الاحكام القانونية) ، الا أن تشريع جوستنيان كان يقصر عن الاجابة على جميع النقاط

التى كان أثارها المشرعون القدامى ، ولذلك ، ورغبة فى سد هذا الفراغ فقد تم نشر عدد من (القرارات) عن طريق تعديل مجموعة عام ٥٢٩ ، وجعل هذه القرارات جزءا متمما لها ، وعلى هذا الاساس فقد صيغت مجموعة قانونية فى شهر كانون الاول من عام ٥٣٤ م وسميت (المجموعة القانونية الثانية) ، وهى مؤلفة من ١٢ قسما ، كما هى معروفة بشكلها هذا فى الوقت الحاضر ، وقد أعلن الامبراطور فى هذه المجموعة بأنه سيعمل على ادخال اصلاحات تشريعية على شكل دساتير جديدة ، وتم نشرها ما بين ٥٣٥ و٥٦٤ م ، وكان عددها ١٦٥ دستورا ، وقد تم ترتيب مجموعات جوستنيان على أساس أن تتضمن : أولا ملاحظات عامة عن طبيعة القانون وتقسيماته ومصادره ، ثم يتبع ذلك القوانين المتعلقة بالاشخاص والاشياء والتركات والالتزامات والمعاملات (١) ، ولا شك بأن هذا العمل التشريعى جدير بالاعجاب باعتبار ان الانظمة التشريعية الحديثة للعالم الغربى تنحدر جميعها من مبادىء جوستنيان القانونية ومجموعاته القانونية على انه ليس من الخطأ أن نلاحظ أن هذه المجموعات والمبادىء القانونية قد قصرت فى التمييز بين الاجتهاد والقوانين المحلية وبين القانون والاخلاق باعتبار انه من المتفق عليه أنها لم تبين الاسس الفلسفية التى قامت على اساسها عملية تجميع النصوص القانونية (٢) .

واذا ما قورنت الفتاوى العالمكيرية بأعمال جوستنيان ضمن الاطار التحليلى نفسه ، لوجدت أنها تتفوق عليها ، فلم تكن الفتاوى عملا علميا عظيما تميز بالجد والبحث فحسب ، بل كانت أكثر من ذلك ، واستنادا الى نظام الشريعة الاسلامية فان الموقف الاسلامى من علم الفقه لم يكن مجرد علم نظامى خال من العوامل الاخرى المتعلقة بالحياة البشرية ، فقد تناول مناقشة النظريات المتعلقة بالقانون وخصائصه العامة ، وتطبيقات هذه النظريات على تصرفات الانسان عن طريق مزاولته للحقوق والالتزامات ، مع ضبط وتصنيف المفاهيم القانونية عن طريق ادخال مبادىء (الاصول) الى علم القانون أو (الفقه) ، وقد مزجت القواعد الدينية والاخلاقية والدنيوية على أساس أن ما كان مأمورا به أو مسموحا فى الدين فهو مشروع ، وما عدا ذلك فهو غير مشروع ، وبعبارة أخرى : ان هذه الدراسة العلمية وشرح الاجتهاد تشكل جميعها ما يسمى (بأصول الفقه) التى تتصل بجذور أو مبادىء القانون ، أما الآراء الفقهية فيما يتعلق بالمظاهر المختلفة للقانون وتأثيراته التى يمكن رؤيتها فى تصرفات الفرد وحقوقه والتزاماته فانها تفرع عن علم (أصول الفقه) زمرة أخرى تدعى (علم الفروع) ، الذى يجزىء المعرفة القانونية الى فروع متعددة وفقا لأنماط التطبيقات التفصيلية (٣) .
وعلى هذا الاساس فان مجموعة عالمكير التى تم اعتمادها بالاستناد الى الخطوط العريضة المذكورة أعلاه كانت أكثر شمولا وأوسع مجالا فى التطبيق من مجموعة جوستنيان ، فمجموعة عالمكير كانت عبارة عن توطيد للآراء القانونية التى تم جمعها ضمن اطار من التدقيق والتحليل بشكل لا تعارض فيه مع فحوى القوانين السابقة ، وعلى خلاف جوستنيان فان عالمكير لم يكن لديه أية مصالح انتهازية من شأنها الافتئات على القوانين المقدسة حتى أنه — أى عالمكير — ترك غير المسلمين يتبعون قوانينهم الخاصة بهم فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية (٤) .

وقد جمعت الفتاوى العالمكيرية فى ضوء ما تقدم ، وقسمت الى مختلف أقسام الفقه من أحكام العبادات والقانون والاجتهادات وفقا للمذهب الحنفى ، وعزى فيها كل مسألة وحكمها الى المرجع الفقهى الذى أخذت منه .

هذا ، واننا بمقارنة الفتاوى العالمكيرية مع الخمسين كتابا العائدة لمجموعة جوستنيان ، والكتب الاثنى عشر الخاصة بالمجموعة الثانية لجوستنيان نرى أن مجموعة عالمكير التى شملت ميادين أكثر اتســاعا لجوانب الحيــاة الفردية والاجتماعية لعامة المسلمين كانت مقسمة الى كتب اكثر عددا تضمنتها أجزاء عديدة ضخمة ، وتشكل عملية جمع الفتاوى أسلوبا جديدا من أساليب التطور فى تدوين القانون بكل ما فى هذه العبارة من معنى حديث ، اذ أنها ربطت ما بين النظريات المدرسية الصرفة وتأثيرات الحياة العملية لكى يمكن التوفيق ما بين المطالب النظرية وحاجات المجتمع الاسلامى المتغيرة بشكل تدريجى . الا أنه لا يمكن أن ننكر هنا أن الذين قاموا بعملية الجمع كانوا يرون أنفسهم ملتزمين بأحكام المذاهب الاسلامية القائمة ، وبالتالى عملوا على تطويــر صفات التغير الذاتية التى تقتضيها ضرورات الظروف الزمنيــة ضمن حدود ما تســمح به الشريعة .

فطالما أن الفتوى هي رأى قانونى رسمى صادر عن مفت رسمى أو عن عالم شرعى مشهود له بشأن مسألة عرضت عليه من قبل القاضي أو من قبل فرد ما أو حتى من قبل الدولة فان القاضي يمكنه بالاستناد الى هذا الرأى اصدار حكم فى القضية المعروضة عليه كما يمكن للفرد أن ينظم حياته الخاصة بالاستناد الى الفتوى التى تلقاها ، وبما أن هذه الآراء الفقهية تتناول قضايا واقعية وهى منطبقة مع النصوص الشرعية فان نشرها له قيمة كبيرة باعتبار أنهــا تتعلق بأوضاع قائمة (٥) .

وهكذا نجد ما للفتاوى العالمكيرية من دور قيم فى تاريخ العلوم الشرعية الاسلامية ، ونجد بالتالي أن هذه الفتاوى بوضعها الحدود والصيغ المناسبة لتطبيق القانون وفقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أغنت السلطات القضائية عن التحرى فى مراجع أخرى ، لأن هذه الفتاوى تتضمن أحكاما بالنسبة لأية نقطة من النقاط القانونية بلغة سهلة وواضحة .

وتتأكد اهمية الفتاوى أيضا عنــدما نرى كيف أنه تم اتباعها فى تطبيق الشريعة الاسلامية فى أرجاء العالم الاسلامى أجمع منذ أن تم جمعها فى القرن السابع عشر الميلادى ، فبصرف النظر عن المذاهب الدينية المتبعة فى مختلف الاقطار الاسلامية فانه من الطريف أن نلاحظ بأن الاحكام القضائية الصادرة فى هذه الاقطار تستند الى المبادىء القانونية التى احتوتها هذه الفتاوى وعرضتها بشكل سهل وواضح ، كما أن هذه المبادىء قد تم تبنيها فى كثير من الحالات فى تشريعات السلطات القضائية فى العديد من الاقطار الاسلامية ، ومن الامثلة البارزة فى هذا الصدد مجلة الاحكام العدلية التى كان معمولا بها فى مختلف أصقاع الامبراطورية العثمانية ، وبالاضافة الى ذلك تم طبع الفتاوى نفسها فى القاهرة فى سنة ١٣١٠ هـ فى ستة أجزاء ضخمة ، وسميت بالفتاوى (الهندية والعالمكيرية ، كما أننا نرى أن عدة بلاد قامت بتطبيق هذه الفتاوى بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، فمن مراكش الى اندونيسيا ، ومن تركيا الى جنــوبى افريقيا ، استخدمت مجموعة الفتاوى كمرجع جاهز لاصدار الاحكام القضائية فى تطبيق نظرية الشريعة الاسلامية من حيث الشكل والموضوع (٦) .

وفى نطاق التطبيق القضائى للفتاوى نجد تطبيقها الحسى وتقليد طريقة عرضها للأحكام فى كل من ميدانى الجوهر والشكل لقوانين الاسلام ، ومنــذ اصدارها من قبل عالمكير ، قامت الادارة القضائية المغولية باتخاذها كأداة من أدوات الادارة القضائية للمسلمين ، وبالنسبة لغير المسلمين ــ كالهندوس الذين

تركوا يمارسون قوانينهم الخاصة بهم لادارة احوالهم الشخصية المتعلقة بالارث والزواج والتبني ونظام الطبقات وما شابه ذلك ــ فقد كانت تطبق بحقهم أحكام الشريعة بالقدر الذي يسمح به كونهم من أهل الذمة في دولة اسلامية ، على أن أهل الذمة كانوا يخضعون لقانون العقوبات الاسلامي ، والقانون المدني الاسلامي في الشؤون المتعلقة بالتجارة والمقاصة والتبادل والبيع والعقود ، وبالنسبة للمنازعات كان القانون الاسلامي هو القانون المطبق فيما اذا كان الطرفان المتنازعان مسلمين (٧) .

وقد استمر هذا الوضع حتى عهد شركة الهند الشرقية ، كما أن نظام الدولة في كالكوتا وغيرها من المناطق استمرت على تطبيق قانون العقوبات الاسلامي ، وعلى سبيل المثال قد استند على الفتاوى العالمكيرية في قضية (سيبا) ضد (مويونولا) في عام ١٨١٨ م ، حيث جاء في قرار المحكمة أن **« القانون الاسلامي يقر بحق السلطة الحاكمة بانزال العقاب في حالات الجرائم الخطيرة تحقيقا لمبادىء العدالة على الرغم من أن الطرف المتضرر قد تنازل عن حقه الخاص »** .

وبالاستناد الى الفتاوى العالمكيرية أيضا تقرر أن الصبي البالغ من العمر أربع عشرة سنة ، والذي قتل صبيا آخر عمره احدى عشرة سنة ، يجب أن يحكم عليهما بعقوبة (التعزير) الاسلامية باعتبار أن القصاص لا يجوز انزاله بحق طفل لم يبلغ سن الرشد . وحتى الآن بعد ادخال قوانين العقوبات في كل من الهند والباكستان ما يزال قانون الجنايات الاسلامي ساري المفعول في كثير من الدول الافريقية ، وما تزال الفتاوى العالمكيرية مقبولة ومتبعة في هذه الدول .

— ٤ —

وبالاضافة الى ما ذكر فان المجموعة العالمكيرية يستند اليها بشكل ملحوظ في كثير من القرارات القضائية التي تظهر قيمتها العملية : ففي الهند والباكستان يتحتم الاشارة الى الفتاوى العالمكيرية كسوابق موثوقة ، كما يتحتم الاستشهاد بها ومناقشتها واتباعها في غالبية القضايا التي تتعلق بتطبيق القوانين الاسلامية في مسائل الاحوال الشخصية ، وأن مؤلفي كتب النصوص القانونية الاسلامية يستشهدون بسلطة الفتاوى العالمكيرية ، ويظهرون تفوقها في عرض نصوص القوانين (الاحكام) الاسلامية .

وفي بعض البلاد الاسلامية الاخرى تتبع الفتاوى بشكل مباشر ، وبصورة خاصة تعتبر كتب النصوص القانونية المستندة الى الفتاوى مراجع أساسية في كل من الهند والباكستان ، وفي بلاد ماليزيا ، وبورما ، وسيلان وكينيا وأوغندا وبلاد أفريقيا الشرقية ، ويتضمن العديد من القرارات المتعلقة ببعض القضايا القضائية استشهادا بهذه الفتاوى ، وكذلك الحال في بلاد الشرق الاوسط ، ولعل أهم مثال على اتباع الفتاوى في هذه المنطقة هو قضية (سعدات كامل خاتم) ضد المدعي العام في فلسطين ، اذ اعتمدت المحكمة بعض النصوص الواردة في الجزء الثاني من الفتاوى ، وتتعلق هذه القضية بمسألة تطبيق التقادم (مرور الزمن) لأجل استرجاع أملاك العائلة المشار اليها من الحكومة التي استولت عليها . وقد أقر مجلس القضاء البريطاني الحكم الصادر عن المحكمة العليا بفلسطين بالاستناد الى الفتاوى العالمكيرية ، وقد تداولت المحكمة في

هذه القضية مداولة واسعة فى القانون المدنى العثمانى (الكتاب الرابع عشر ، المواد من ١٦٦٠ — ١٦٦٧ من المجلة) ، وكذلك بعض كتب النصوص الفقهية ككتاب عمر حلمى افندى (مجموعة قوانين الاوقاف المترجمة عن تايسر وديماتريادس ١٨٩٩ نيقوسيا) ، واستشهدت أيضا ببعض القضايا المماثلة فى قبرص ، ووجدت أخيرا مقطعا فى الجزء الثانى الصفحة ٤٧٤ من الفتاوى بشرح الموقف الصحيح بالنسبة لنقطة الخلاف ، واتخذت حكمها النهائى بالاستناد على المقطع المذكور (٨) .

ان القانون الانكلو — امريكى المعاصر ، وكذلك انظمة القوانين المدنية الاوروبية ، تستند فيما يتعلق بنظرية القرابة الى القوانين الرومانية . وتحدد هذه النظرية درجة التحريم فى موضوع الزواج ، وقد وضع قانون نلبليون ضمن اطار مجموعة جوستنيان القانونية (٩) ونجد بالمقارنة أن الانظمة القضائية المعاصرة فى كثير من البلاد فى العالم الاسلامى قد اقتبست أحكامها من الفتاوى العالمكيرية الا أن مدى اتباع أحكام جوستنيان يختلف كثيرا عن اتباع الفتاوى العالمكيرية . فالانتهازية والنزعات السياسية دخلت الانظمة القضائية الغربية ، وتراث القانون الرومانى اتخذ أشكالا مختلفة وألوانا متعددة ، وفى مقابل ذلك نجد أن المصدر الالهى للشريعة الاسلامية ومبدأ الاخوة البشرية فيها قد حد الى مدى كبير من ادخال المفاسد السياسية الى الانظمة القانونية ، ولو أن بعض مفاهيم القانون الغربية قد تسربت فى السنوات الاخيرة الى الانظمة القانونية فى البلاد الاسلامية ، وكان ذلك بتأثير السيطرة السياسية الغربية على البلاد الاسلامية والسياسة الاستعمارية التى اتبعتها الدول الغربية تجاه البلاد الشرقية ، وفى الوقت الحاضر يلاحظ أن مبادىء الفتاوى العالمكيرية وتطبيقاتها العملية ما تزال تحظى الى درجة كبيرة بتبعية فى البلاد الاسلامية .

ونصوص الفتاوى المستندة الى نظام الشريعة الاسلامية بالرغم من انها قد وضعتها السلطة الزمنية للامبراطور المغولى فانها قد ازدادت عمقا فى التطبيق من قبل السلطات اللاحقة فى أنظمة الادارة الاسلامية ، ولعله من الصعوبة بمكان أن نجد ما يماثل ذلك فى تاريخ العالم القانونى ، والسبب الرئيسى لذلك يكمن فى أن الفتاوى قد تم جمعها من قبل هيئة مختارة من العلماء المتشرعين والقضاة الذين وحدوا الآراء المشتتة المتعلقة بالشريعة ، وجعلوا منها مرجعا يسهل الاسترشاد به ، وبمقارنة هذه الفتاوى بما قام به علماء القانون والمستشارون القانونيون من كتابات أو تعليقات فى موضوع القانون والاجتهاد الاسلاميين نجد أن الفتاوى قد تضمنت مبادىء وقواعد تم التعارف عليها ، وعمل بها فى الانظمة القضائية الاسلامية فى ظل السلطة الزمنية للمغول ، ولهذا السبب نجد أنه حتى فى ظل الادارة البريطانية فى الهند أقرت المحاكم بأصالة الفتاوى وصحتها .

فمن ذلك ما أورده القاضى البريطانى (بيمان) فى موضوع قضية (تجبى) ضد (مولى خان) . فان هذا القاضى العالم بشرحه لأصالة الفتاوى فى موضوع عدم شرعية زواج أخت الزوجة أثناء قيام زواج الاخت الاخرى قد قال : « أيا كان التفسير الحرفى المعاصر لآية فى القرآن الكريم فان المحاكم لا تستطيع أن تنسى أن الحكم المستخرج من هذه الآية القرآنية قد استمر قائما لفترة عشرة قرون فى ظل حكم سلاطين المسلمين وأباطرتهم ، ولذلك فان هذا القانون الذى وضع نصوصه فطاحل العلماء المتوافرين فى عصرهم وكبار المتشرعين الذين كانوا فى خدمة (أورانك زيب) يجب أن يحظى منا بأعلى مراتب الاحترام .. وقد

أوردت المحكمة فى سياق شرحها لدور هذه الفتاوى فى القوانين الاسلامية مايلى (ان الاستشهاد بوثوق كتاب ككتاب الفتاوى العالمكيرية سواء احتمل معنـاه تفسيرات أخرى أم لا فان ذلك لا يقدم ولا يؤخر فى الامر باعتبار أن ما جاء فيه بالنسبة للرأى الراجح لدى مؤلفى الفتاوى العالمكيرية هو القانون الصحيح) وقد رفض القاضى المذكور اتباع كتاب رد المحتار ، وأشار الى (أننا لا نستطيع أن نقر بأن كتابا ككتاب رد المحتار الذى كتب فى عام ١٨١٧ م يمكن الاخذ به كمرجع له قيمة الفتاوى العالمكيرية ذاتها) .

وتجريحا لحكم صدر سابقا عن المحكمة العليا فى كالكوتا بشأن قضيـة (عز النساء خاتون) ضد (كريم النساء خاتون) ، وبعد استشهاد دقيق بعدد من كتب القانون الاسلامى ، كالفتاوى التتار خانية ، والهداية وشرح الوقاية ، وكنز الدقائق والعناية ، وغيرها من الكتب ، ومقارنتها بمقاطع من الفتـاوى العالمكيرية التى تعطى النص المناسب بشأن الموضوع المطروح على البحث ، قررت المحكمة « بأن الامبراطورية الاسلامية فى الهند قد انقرضت منذ وقت طويل ، وأن المؤلف (الذى استند الى كتاباته بشكل مشتت وبدون أية رابطة واتخذت كملحق للحكم الصـادر عن المحكمة العليـا بكالكوتا) هو مؤلف كثير التصلب ، يوحى بدلائل على أنه كثير الغرور بالآراء الصادرة عنه ، واعتقادنا بأنه من دواعى الحيطة أن نقول : بأنه ليس هناك من مسلم يضع هذا المؤلف على مستوى مماثل أو مقارب لمستوى العلماء الذين قاموا بجمع الفتاوى العالمكيرية ، وليس لنا الحق بأن نقلل من شأن هذه الفتاوى العالمكيرية على أساس أن رد المحتار ألقى بعض الشك على وثوقها » .

ونعود الآن الى الفتاوى العالمكيرية نفسها لنجد أن هذه الفتاوى قد كتبت أصلا باللغة العربية ، ثم ترجمت فيما بعد الى الفارسية من قبل جلبى عبد الله ، وهو ابن مولانا عبد الحكيم من سيالكوت أثناء عهد الامبراطور ، وقد أعيدت طباعتها فى دول الشرق الاوسط عدة مرات ، وترجمت أيضا الى اللغة الاوردية ، وبعد أن أعيدت طباعتها فيها عدة مرا تتم طبعها مؤخرا (عام ١٩٦٤) فى لاهور فى الباكستان وديوباند فى الهند ، وكان نيل ب . أ . بيلى أول المستشرقين الذين ترجموا أجزاء من الفتاوى الى اللغة الانجليزية الا أن تصرفه بالترجمة قد أسقط المراجع ، وفى كثير من الاحيان أسقط مسائل على غاية من الاهمية منها التعليقات والتعليلات ، لدرجة تجعل القارىء الذى لا يستطيع الرجوع الى الاصل يجد كثيرا من عدم التكامل ، بل ويجد أحيانا اختلافات ليس لها أصل فى الطبعـة العربية ، وبعبارة أخرى فان كتاب بيلى الذى سماه « مختارات من القـانون الاسلامى » هو فى الحقيقة كما يستدل على ذلك من مقدمة الكتاب افتئـات على الموضوع من قبل المترجم نفسه وباستثناء ما جاء فى هذا الكتاب من ترجمات صحيحة لبعض المراجع فانه ليس له أية قيمة أكثر من أى كتاب مدرسى باللغة الانجليزية ، كما أن فصول بعض الكتب المدرسية ككتاب (الاحوال الشخصية للمسلمين) لمؤلفه أمير على لا يمكن الاعتماد عليها كدليل فى هذا المضمار ، والسبب فى ذلك يعود الى أن هذه المراجع ذاتها أسىء فهمها فى بعض الاماكن من قبل بيلى عندما كان يستشهد بالنص العربى الاصلى لهذه المراجع ، وقد كان ذلك من الاسباب التى أثرت تأثيرا كبيرا فى التطبيق القضائى الصحيح لمبادىء القانون الاسلامى فى الهند ، حتى انه يمكن القول بأن الباكستان لم تسلم من ذلك فى ظل قاعدة مرور الزمن التى اعتمدت بموجب نظرية السوابق القضائية

وأريد هنا أن أستشهد بمثال عملى لسوء الفهم الذى يتبين من قضـية

(فاطمة بيبى) ضد (احمد بخش) ١٩٠٣ م ، والتى هى دليل حسى على سوء ادراك القانون الاسلامى من قبل المحاكم الانكلو ــ هندية ، ومؤلفى الكتب المدرسية فى الهند ، ففى هذه القضية أسىء فهم مبدأ جوهرى من مبادىء القانون الاسلامى ، وهو المتعلق بمرض الموت .

فقد اعتمدت المحكمة العليا فى كالكوتا على مجموعتى بيلى وأمير على بغية الاستدلال بالفتاوى العالمكيرية حول النقطة موضوع البحث ، فقد عمى على القضاة أن ما جاء فى كتاب أمير على حول هذا الموضوع لم يكن اقتباسا من الفتاوى الاصلية وانما كان اقتطافا من كتاب مجموعة بيلى . فقد ادعى أمير على خطأ بأن المقطع الوارد فى كتابه حول الموضوع كان ترجمة لمقطع كامل من الفتاوى ، واذا ما قورن هذا المقطع بما ورد حول الموضوع ذاته فى مجموعة بيلى يتبين أن ما زعم أمير على أنه ترجمة مباشرة من الفتاوى لم يكن فى الحقيقة سوى نقل من كتاب بيلى .

وبذلك يكون أمير على الذى يدعى الترجمة المباشرة من الفتاوى قد قام بالفعل بنقل ما جاء فى كتاب بيلى بكل ما تضمنه هذا الكتاب من اخطاء وأغلاط ، ومع أن بيلى كان يتظاهر بالصدق الى حد القول بأن ترجمته كانت تسير جنبا الى جنب مع ما كان يستخلصه هو نفسه من الفتاوى (كما تثبت ذلك الحواشى) فانه يمكن بسهولة رؤية جزء المقطع من « التعريف الاصح لمرض الموت » الى « يؤدى أو لا يؤدى الى جعلها عاجزة عن ممارسة الشؤون الضرورية فى الداخل » بأنه لم يكن ترجمة لأى مقطع من مقاطع الفتاوى العالمكيرية على الاطلاق ، انما كان ذلك استنتاجا منه من مقطع من الدر المختار الذى كان ذاته عديم الاساس ، وقد خدع جميع القضاة بكتاب أمير على ، وظنوا بأن المقطع جاء من أصل الفتاوى دون أن يحملوا انفسهم عناء قراءة كتاب بيلى وشروحه الذيلية ، ومع الاسف فان القضية لم تحصل على الرعاية الكافية من قبل اللجنة القضائية التى عالجت النقطة الاساسية فى دعوى الاستئناف على أنها مجرد مسألة وقائع ، وصدقت على الحكم الصادر عن المحكمة العليا فى كالكوتا .

● ● ●

وبعد ما القينا من نور على قيمة الفتاوى العالمكيرية فاننا سنأتى ببعض الملاحظات العامة الهامة ، فى يومنا هذا : ان مسألة جعل القوانين الاسلامية متوافقة ومتناسبة مع مقتضيات الحياة العصرية تشغل بال كثير من الاشخاص المهتمين بالموضوع ، كما أن مسألة التقنين الاسلامى للقوانين فى جمهورية الباكستان هى من أدق المسائل التى تطرح فى يومنا هذا ، ولقد دل التاريخ القانونى فى الهند على أن النظام البريطانى قد الغى أحكام الاجراءات الاسلامية (أصول المحاكمات أو المرافعات) وحتى فى ميدان القوانين الموضوعية تسربت بعض المفاهيم القانونية الانجليزية أو الغربية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية من قبل حكومة أجنبية ، وان ادخال الاساليب الاجنبية جاء سهلا فى نظام الادارة العدلية فى البلاد ، ويمكن القول الى حد ما بأن عدم امكانية تطبيق القانون الاسلامى لعدم توافقه مع متطلبات الحياة العصرية قد تسبب فقط من جراء الفصل بين قوانين الاجراءات الاسلامية وقوانين الموضوع ، ومن المتفق عليه أن الاثنين يشكلان جزءا متكاملا لنظام واحد ، وكل منهما يتأذى من عدم رعاية الآخر ، ولذا فان الحاجة ماسة للتقيد بقوانين الاجراءات الاسلامية عند تطبيق قوانين

الموضوع ويجب أن يكون هذا دليلا يهتدى به فى مجال تطبيق النظام القضائى ، وهنا تبدو القيمة العصرية العملية والمادية وتظهر المساعدة التى يمكن أن تحصل عليها الادارات العدلية من الفتاوى العالمكيرية ، فوضع تقنين اسلامى نموذجي على أساس مبادىء قانونية تشمل النواحى الاجرائية والموضوعية يمكن بسهولة استخلاصه من هذه الفتاوى ، وبالنسبة للمذاهب الاخرى ، خلاف المذهب الحنفى ، فانه من السهولة أخذها بعين الرعاية فى هذه التقنينات النموذجية عن طريق اعتبار الميزات البارزة والمبادىء القانونية عندما تختلف الآراء بين مذهب وآخر ، وهذه التشريعات النموذجية يجب أن يحتفظ بها كوسيلة لشحذ الذاكرة ، وكمرشد للمحاكم بشكل عام ، وذلك بغية تجنب كل ما من شأنه أن يفتئت على المفاهيم الاسلامية للادارة القضائية ، واذا ما أمكن عمل مثل ذلك فانه يمكن الاقرار بأن معالجة جدية صحيحة لموضوع الاجتهاد الاسلامى يتوجب البدء بها ، وبذلك تتخذ البلاد الخطوات الفعالة فى سبيل اقامة أوضاع المؤسسات القضائية وفق التعاليم الاسلامية .

---

(١) من المسلم به أن امبراطور روما كان تحت سيطرة ملكته تيودورا (وهى امراة من أصل منحط رفعها الامبراطور) وبذلك تسرب التاثير الشخصى الى المجموعة ت. س. ساندرز : الاحكام القانونية لجوستنيان ص ٣١ (١٩٥٢ لندن) .

(٢) المصدر السابق ، راجع أيضا هـ. ف. جولوفيتش : الاسس الرومانية للقانون الحديث (١٩٥٧ أكسفورد) .

(٣) راجع أ. أ. قادرى : الفقه الاسلامى فى العالم الحديث ٤٤ ، ٨٣ ، ٨٤ (١٩٦٣ بومباى — تريباتى) .

(٤) انظر مقدمة الفتاوى العالمكيرية والكتاب الثالث عشر : كتاب السير ، شارل هاملتون ، هداية ، مجلد ١ النظرة التمهيدية ص ٨٦ (١٧٩١) .

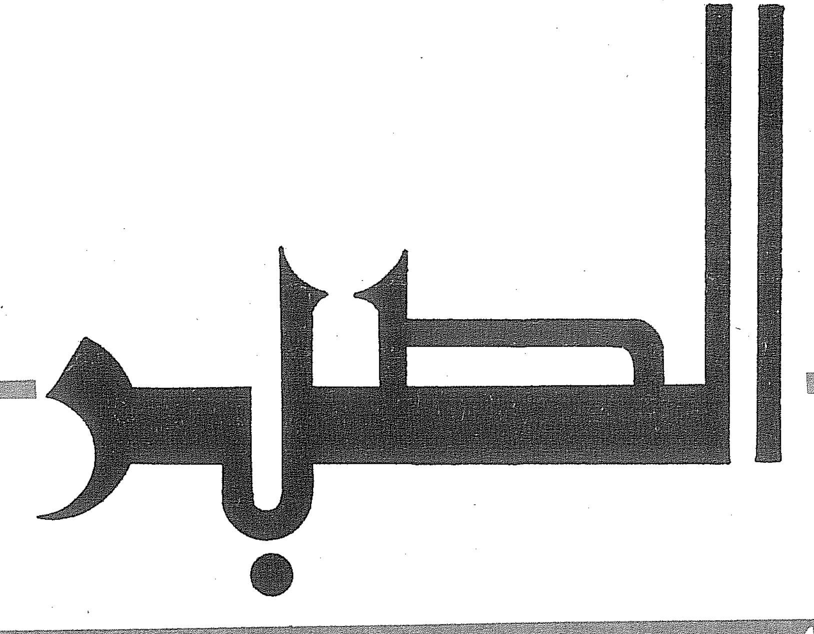
(٥) انظر دائرة المعارف الاسلامية الموجزة ١٠٢ (١٩٥٣ ليدن بريل) ، انظر أيضا المقريزى ، كتاب الخطط المجلد الرابع ١٤٣ .

(٦) انظر مثلا : لويس ميليو : مقدمة لدراسة القانون الاسلامى (١٩٥٣ باريس : سيرى) ، شكرى قرداحى الفصل ١٤ تنازع القوانين ، فى : القانون فى الشرق الاوسط (١٩٥٥ واشنطون معهد الشرق الاوسط) ، جورج يونج ، مجموعة القانون العثمانى (١٩٠٥ ، ١٩٠٦ اكسفورد) شارل أ. هوبر : القانون المدنى لفلسطين وشرق الاردن . المجلد ١ (١٩٣٣ القدس) .

(٧) انظر الهداية (الترجمة الفارسية) الكتاب ٢١ هاملتون : الترجمة الانجليزية للهداية المجلد الثانى ٦٨٤ — ٦٩٠ — ٦٩١ .

(٨) لمراجع أخرى عن (الفتاوى) والكتب الهندية ، انظر التقارير القانونية للدول التى تطبق الشريعة الاسلامية . انظر مثلا فاطمة بنت محمد ضد محمد بن سالم ١٩٥٢ أ. س ١ — ١٠ ص ٧ — ٨ ، رزيتى بنت عبد الله ضد شريفة بنت محمد بن حامد : استئناف المجلس الخاص رقم ٦٣ فى ١٩٦٠ المحكوم فيه فى ديسمبر ١٩٦٢ (دعاوى الدول الافريقية) ، انظر أيضا المراجع المذكورة فى فيتزجيرالد : القانون المحمدى (١٩٣١ اكسفورد) .

(٩) انظر مثلا سوينبون : كتاب الوصايا الطبعة الخامسة (١٧٢٨) القسم ١ الجزء ١٦ ص ٥٩ ل ٤٥—١—١٣٤ س ٥١ ، ١ الخ من جوستنيان ، هوايت ضد هوايت (١٧٧٨) ١ بر. س. س. ١٢ .



أعظم درجات السمو العقلي والنفسي

للأستاذ : أحمد مختار قطب

لعل أخطر ما يتعرض له أى مجتمع من المجتمعات هو تشكيكه فى القيم التى يقوم بنيانه عليها ، ذلك أن مجرد النجاح فى ذلك ينتهى بالمجتمع الى الأنهيار الكامل ويصير كما قلنا فى مقال سابق فريسة لأى غزو جديد .

والى جوار الهدم الأصلى فى المجتمع الاسلامى عن طريق اقناعه بأن الدين فى حد ذاته لم يعد صالحا لحل المشكلات التى يواجهها الانسان على الارض وأن دوره يجب أن يقتصر على الغيبيات فقط وأنه أسوة بكل الأديان لا يزيد عن كونه مرحلة معينة لابد أن يمر بها الانسان فى مراحل تطوره حتى يبلغ رشده الوجدانى ويغنيه هذا الرشد عن صوت السماء الذى كان يتخيل أنه يتصل به عن طريق الرسل وأن عليه وقد وصل الى هذه المرحلة ان يعرف سبيله بنفسه وأن يشرعه وينحته من واقع تجاربه تاركا الفروض الغيبية التى كان يغرق فيها الأقدمون .

وهم يسندون هذا الغزو العام بغزو خاص يهدم كل قيمة على حدة فاذا انهدمت القيم كلها انهار البنيان من قواعده وخر السقف على أصحاب العقيدة التى لم يتلقوا قدرا كافيا من الحماية الذهنية لها .

• يقوم على الفهم الصحيح للأمور
• ويكون في اختيار الموقف الآجل على العاجل

فهم يهدمون فكرة التوكل على الله قائلين انها فى الاسلام لاتحمل الا معنى التواكل ويهدمون فكرة الصبر قائلين انه صنو الاستسلام ، ويهدمون فكرة التوحيد قائلين انها تبعد بالانسان عن الواقع متمثلا فى الاسباب الظاهرة التى يرونها ويهدمون فكرة الايمان بالآخرة زاعمين انها حيلة الضعفاء تعزية عن ضعفهم المتمثل فى أمل فى معيشة فى عالم آخر قد يجدون فيها مايعوضهم وهكذا يمضون فى تصوراتهم حتى لا يبقى لدى المسلم الا أن يفر من هذه العقيدة التى تؤدى به الى التواكل والاستسلام وعدم الواقعية ، وخيال العاجزين فيتلقاه شياطين العقائد الأخرى وهو هش تخربت نفسيته وفراغها قابل للامتلاء بغثهم وزخرف قولهم .

— ● — ● —

ولقد تحدثنا فى مقال سابق عن معنى التوكل على الله وكيف أنه شىء مختلف تماما عن التواكل ونتكلم فى هذا المقال عن معنى الصبر قائلين أنه على العكس تماما مما يقولون فهو شىء آخر غير الاستسلام .

والواقع أن القرآن الكريم تكلم عن الصبر بمعنى الاستسلام حيث يكون الأمر متصلا بموقف من يعصى الله ثم يجازيه الله على ذنبه فهنا ليس له من سبيل ازاء أمر الله الا الاستسلام والرضوخ لا اختيارا منه ، بل لأنه لا يملك الا هذا الموقف فلا يفلح فى دفع عقاب الله عنه شىء فليس هناك بديل عن الصبر وهو هنا بمعنى الاستسلام أو الرضوخ كأمر لا ثانى له وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الطور الآية ١٦ .

« اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم . انما تجزون ما كنتم تعملون » .

وفى سورة ابراهيم الآية ٢١ .

« وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء . قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » .

واضح أن هذه الآيات تعنى بالصبر الخضوع والرضوخ والاستسلام حيث لا سبيل ولا طريق الا هو .

أما المعنى الآخر الذى أورده القرآن الكريم للصبر وهو الذى نقول انه احد اعمدة العقيدة وأهم دعامة للنجاح فى الحياة نجاحا يشملها ويشمل الدار الآخرة فهو عبارة عن موقف يتميز بالعزم والصدق حيث يكون على الانسان ان يختار طريقا من طريقين أحدهما فيه طاعة الله وتنفيذ ما أمر به والثانى أيسر من هذا الطريق اذ يستجيب فيه الانسان لأهوائه وميوله أو ربما مخاوفه وهو عندما يختار بين الأمرين يتعرض لضغوط كثيرة قد تؤدى به الى اختيار الطريق الأسهل ... فهو يتعرض لضغوط من داخل نفسه تتمثل فى أهوائه وميوله وضغوط خارجية كمقاومة فتنة الناس وايثاره السلامة عن طريق مسايرتهم والتفريط فى طريق الله التماسا للأمن العاجل أو المنفعة العاجلة .

والانسان دائما مواجه بعملية الاختيار هذه وفى كل لحظة من لحظات حياته عليه أن يختار بين أمرين ولكل أمر أسباب داعية لترجيحه وتفضيله وهذه الاسباب تدور بين الرغبة فى العاجل وبين ايثار الآجل فمن يستطيع أن يخدع المتعامل معه ليكسب مكسبا عاجلا يؤثر هذه الرغبة مادام قادرا عليها على كل النتائج الآجلة لاستقامة المعاملات سواء فى الدنيا أو الآخرة والذى يفر عند لقاء العدو يخضع للرغبة فى السلامة العاجلة ، ويؤثرها على كل النتائج الآجلة مهما هبط به الفرار الى أى درك .

والصبر يكون فى اختيار الموقف الآجل على العاجل وهو عندئذ وعندئذ فقط يكون فضيلة .. وهى فضيلة تقوم على الفهم الصحيح للامور فاختيار العاجل يقوم على الاستجابة غير المحسوبة لاحكام اى موقف يوجد فيه الانسان وأما اختيار الآجل فهو عبارة عن الاستجابة المحسوبة للمواقف .. فاذا فجأ الانسان أمر فهذه المفاجأة لها حكمها ولها الحل الذى توحى به كل مفاجأة من اثارات أيا كان نوعها فالذى يستجيب لعاطفة الغضب الجامح فيقتل من أغضبه انما يخضع للظروف المادية التى أحاطت به وقت انفعاله ويجعل لها عليه السلطان الكامل فهى تعميه عن ادراك غيرها وتجعل بصيرته بالنسبة للنتائج التالية فى الدرجة الثانية أو الثالثة أو مادون ذلك بكثير بالنسبة لقدرة تركيزه وتصوره للموقف الآنى الذى يواجهه فحدة البصر تكون منصرفة للمحيط المادى فقط ولاتتعداه الى غيره .. وأما الاستجابة المحسوبة فيلزمها بادىء الأمر أن يتحرر الانسان من حكم المفاجأة حتى يتمكن من الابصار وهو لايتحرر الا بالفهم والتحليل الصادق وهذا لا يكون الا باجراء عملية ضبط سريعة للانفعالات حتى لا يورطه فيما لا يستطيع التخلص منه ثم يباشر عملية ممارسة شاقة لا سباب الحل الآجل حتى تستجيب له الاحداث وهذا هو نصر الله .

فالاستجابة العاجلة تكون خضوعا غير مبصر من الشخص للاثارات المادية أو ردودا مباشرة لها . وأما اختيار الآجل فهو التحليل والتروى مع عدم الانخداع بالفوريات حتى تستجيب الأحداث فيصبح الشخص هو سيد الموقف وليس عبدا له .

والمشاهد أن الانسان اذا لم يبادر بشفاء نفسه من أى انفعال فورى فان هذه الانفعالات تنقلب الى أدواء نفسانية مزمنة ربما يصعب أو يستحيل التخلص منها وتسيطر على الانسان سيطرة كاملة فانفعال الغضب الجامح ان لم يعالجه الانسان بالفهم الصحيح والصبر على هذا الفهم انقلب مع الزمن الى رغبة فى الانتقام والفرار من العدو ينقلب مع الزمن الى استكانة متأصلة فى النفس والركون الى اللذة العاجلة ربما ينتهى بالانسان الى التحلل ووهن الشخصية وتبعثرها وهكذا الأدواء النفسية كالأدواء العضوية سواء بسواء ان لم تعالج فى البداية انقلبت الى أدواء مزمنة وربما ضاعت حياة الانسان هباء وهو خادم لرغبة خاطئة محدودة هدامة ، فالراغب فى الانتقام تكاد تشكل هذه الرغبة الاطار الذى لا يعدوه ذهنه وتفكيره مهما كان صاحب ملكات خلاقة ، واسير شهواته ونزواته يجعل هذه الشهوات والنزوات بمثابة التكاليف التى تحمل بها ملكاته العقلية والذهنية ، وهى اما أن تستنفدها أو تبقى منها فائضا ضئيلا .

فالصبر علاج لكل هذه الأدواء النفسية وهو أعظم درجات السمو العقلى والنفسى وغاية ما يطمح اليه الانسان من تحرر . فالصابر هو الانسان الكامل القادر على التسامى فوق الاحداث وفوق الانفعالات وفوق العواطف الهدامة .

— ● — ● —

والعقيدة الاسلامية كانت وما تزال خير مخرج للصابرين فما من أحد اعتنقها عن فهم ألا وأحدثت فيه تحولات تدنيه من الكمال بقدر قدرته على هضمها وكلما ازداد هضمه ازداد كماله .

وفى مجال الصبر يرسى القرآن الكريم الدعامة العقلية الاولى له ويقرنه بها وجودا وعدما . وهذه الدعامة هى العقيدة المبنية على التحليل العقلى الذى لابد وأن ينتهى بالانسان الى التوحيد واذا ما اعتقد الانسان أن الله واحد لا شريك له وأن كل القوى التى تظهر طافية على سطح الحياة هى قوى من طبيعتها الأفول والذهاب وأنه قد تكون لهذه القوى بعض السلطان أو كل السلطان على عقول الناس وهى ان لم يكن لها سلطان على العقول فقد يكون لها سلطان على الارادات فينصرف الانسان بذلك عن الجوهر الى المظهر وعما ينفع الى الزبد وعندئذ تبرز فضيلة الصبر مستندة الى هذه الدعامة العقلية العقائدية وهى الثقة بأن وعد الله حق وان كل ما يظهر على سطح الحياة من أحداث تبدو وكأنها ذات قوى فعالة انما هى مما لا يجوز أن يربط الانسان مصيره بها وانما يربطه بما وراءها من ارادة مسيرة ومهما توهم أنه يصارع التيار فلا بد وأن ينتصر لأن الامر كله لله وليس لهذه المظاهر .

« فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

ووعد الله سبحانه وتعالى بالجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة انما يكون للملتزمين لأوامره سواء كانت هذه الاوامر تكليفا بأداء أو بامتناع .. وهذه الأوامر تكون السنة والطريقة المثلى للوصول الأمثل ومهما أبطأ ذلك فهو لا بد واقع .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .

(سورة الاحقاف آية ٣٥)

ويزود اللــه المؤمنين بأن وعده الحق بتحليل عقلى عقائدى آخر يثبت به قلوبهم ويعصمهم أن ينخدعوا فى المظاهر ويخرجهم من ظلمات التشكك والارتياب الى نور اليقين .

فعندما كلف المؤمنين بالقتال فى سبيل الله دفاعا عن كيانهم أفهمهم أن القعود عن هــذا الواجب لن يدرأ عنهم الموت أو يؤخره ... وأن الأخطر من ذلك أن المساومة على النجاة وان غلفها العدو بأى وعد معسول لا يجب أن يخفى عنهم الحقيقة وهى أن المهزوم معرض للنتائج الطبيعية لكل هزيمة وهى الخزى والمذلة ثم فتنته فى كل معتقداته .

« كيف وأن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة . يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » .
(سورة التوبة الآية ٨)

وهكذا يمضى كلام الله تعالى فى تبصرة المؤمنين وحمايتهم ذهنيا وعقائديا حتى تكون عقولهم فى خدمة ارادتهم عندما يصبرون ولا تكون ممارســـة الصبر مجرد امتناع مرهق غير مفهوم « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » .

ولن نمضى فى ضرب الأمثال فبوسع القارىء أن يختار أى مسلك فاضل يرضى عنه الله الا ويجد بدل السند أسانيد عقلية تدعمه ولن يجده تكليفا معلقا فى الهواء بغير أساس ثابت .

— ● — ● —

والتطبيق الأمثل لفضيلة الصبر نراه فى مسلك الرسول صـــلوات الله عليه ، فقد كانت حياته كلها امتحانا لتمسكه بهذه الفضيلة واثباتا للنجاح فى هذا الامتحان .

فقد منى فى حياته الخاصة بالكثير مما تنوء به عقيدة الضعفاء وتدفعهم الى البرم والتشكك .

ومنى فى حياته العامة فى سبيل الدعوة بالكثير مما تنوء به النفوس .

وما كان قوله الا أن قال مخاطبا ربه « ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى »
هذا هو التطبيق الأمثل للصبر على الاعتقاد بأن وعد الله حق وما يستتبعه من تنفيذ صارم لكل ما أمر به الله ايجابا وسلبا والسمو بهذا الاعتقاد فوق كل أحداث وأزمات .



تحرره : إدارة الموسوعة

الحاجة الى الموسوعة الفقهية على الصعيد الاسلامى

انتهينا فى الاعداد السابقة من بحث وجوه الحاجة الى موسوعة الفقه الاسلامى على الصعيد العالمى .

ونتناول بدءا من هذا العدد بحث وجوه الحاجة الى الموسوعة الفقهية على الصعيد الاسلامى .

ونستعرض هذه الوجوه تباعا على النحو التالى :

١ ــ الحاجة الى الموسوعة لتدعيم وحدة الامة الاسلامية .

٢ ــ الحاجة الى الموسوعة لتيسير معرفة الفقه المنتشر فى امهات المراجع القديمة .

٣ ــ الحاجة الى الموسوعة من حيث انها مرحلة تمهيدية للاجتهاد والتشريع المعاصر .

٤ ــ الحاجة الى الموسوعة لفهم وتفسير وتطبيق بعض القوانين المعاصرة المستمدة من الشريعة الاسلامية ، سواء كانت هذه الاخيرة مصدرا تاريخيا أم رسميا لها ، أو قانونا عاما يرجع اليه فى حالة الفراغ التشريعى ، أى عند عدم وجود نص قانونى فى موضوع .

* * *

أولا ــ الحاجة الى الموسوعة الفقهية لتدعيم وحدة الامة الاسلامية :

ــ قد يبدو غريبا أن يكون عرض الخلافات المذهبية عاملا فى تدعيم وحدة المسلمين ، بل ان البعض قد أبدى مخاوفه من أن يكون فى عرض هذه الخلافات اثارة لروح التحزب المذهبى وتوسيعا لشقة الخلاف . والواقع خلاف ذلك ...

ــ فان الهوة القائمة بين اتباع المذاهب المختلفة انما نشأت واتسعت نتيجة لتجميد حركة الاجتهاد والنمو الفقهى ، ولتشجيع التقليد الاعمى لائمة المذاهب دون معرفة الادلة ، وحرص كل فريق

على تكثير اتباع مذهبهم ومقاومة المذاهب الاخرى والطعن فيها خلافا لما كان عليه أئمة المذاهب أنفسهم من التقدير المتبادل .

— ان الخلاف فى الرأى هو طبيعة فى البشر ، وان اباحته فى الاسلام يسر فى الدين .

— فطالما ان بعض النصوص تحتمل الاختلاف فى تفسيرها ، وان بعض الاحاديث مختلف على صحة ورودها ، وان العديد من المسائل التى تجد مع اختلاف الامكنة وتطور الازمنة وتجدد الحاجات البشرية لم يرد نص يحكمها وتختلف الانظار فى الحكم الملائم لها ، طالما ان الامر كذلك فالاختلاف بين الفقهاء فى تفسير كثير من النصوص واستنباط الاحكام منها هو الامر الطبيعى وليس العكس .

— ولقد كان أئمة المذاهب أنفسهم لا يجدون حرجا فى الرجوع عن رأى أبدوه اذا تبين لهم خلافه أو تغيرت البيئة التى يفتون فيها كما حدث للامام الشافعى عندما انتقل من العراق الى مصر كما نقل عنهم النهى عن تقليدهم تقليدا أعمى ، والامر بترك أقوالهم اذا تبين فيها مخالفة للسنة الثابتة :

فأبو حنيفة يقول :

اذا صح الحديث فهو مذهبى . لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه . حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى فاننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غدا ... الى آخر ما روى عنه .

ومالك يقول :

انما أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا فى رأيى فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه . ليس أحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم الا ويؤخذ من قوله ويترك الا النبى صلى الله عليه وسلم .

كما رفض محاولتين للخليفة ابى جعفر المنصور ومحاولة للخليفة هارون الرشيد لحمل الناس على مذهبه ، وكان مما رد به عليهما : ان أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب .

والشافعى يقول :

اذا صح الحديث فهو مذهبى . اذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت . كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها فى حياتى وبعد موتى . مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ... الى غير ذلك ... مما روى عنه .

وأحمد بن حنبل :

وهو أكثر الأئمة جمعا للسنة يقول : لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الشافعى ولا الاوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا . (ينظر فى هذا المقام كلام ابن القيم رحمه الله فى اعلام الموقعين ج ٢ ص / ٣٠١ — ٣٠٢) .

وهذا مما يؤكد سماحة الأئمة واتساع صدورهم للخلاف وعدم جمودهم على الرأى أو تعصبهم له ...

ـــ ثم خلف من بعدهم خلف تعصبوا لمذاهبهم وأئمتها ، وقلدوهم تقليدا أعمى وصار التقليد هو الاصل بعد ان كان الاجتهاد هو الاصل ، ووضعوا للتقليد قواعد وأحكاما ، وأصبح فى نظرهم ان الآراء التى فى المذاهب الاخرى خاطئة كلها ، ويرى كل فريق منهم ان كل ما قاله الامام الذى يقلده صحيح لا يحتمل الشك بل كل ما يقيسه كبار مذهبه والمخرجون فيه كذلك !! وقد وصل هذا التعصب المذهبى الى أن يقول الكرخى وكانت له رئاسة الفقه الحنفى بالعراق فى منتصف القرن الرابع الهجرى : « كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ » بل وصلوا فى التحيز للأئمة السابقين الى درجة التشاحن فى جدلهم ، وأخذت العصبية تتزايد الى أن بلغت التقاتل ، وأصبح فى كثير من المساجد أربعة محاريب كل واحد لواحد من المذاهب الاربعة يصلى فيه امام باهل مذهبه فينتظرون الصلاة معه دون غيره كأنهم أصحاب أديان مختلفة ...

واذا كان ذلك قد حدث بين اتباع مذاهب السنة الاربعة ، فان ما بين السنة والشيعة أو الشيعة والاباضية أشد ويغنى فيه التلميح عن التصريح ...

ـــ وقد ولج من باب الخلاف المذهبى كثير من اعداء الاسلام والمسلمين يوسعون شقته ويستغلونها لمآربهم الدينية والسياسية أخذا بقاعدة الاستعمار الذهبية الرهيبة « فرق تسد » . وقد نجحوا فى تأليب بعض الطوائف على البعض الآخر وناصروا فئة على فئة واستعانوا بقوم على قوم ، كل ذلك على أساس مخطط مدروس حتى أصبحوا أعلم من المسلمين بما بين المسلمين من فرق واختلافات وحزازات وعداوات مذهبية .

ـــ وعلاج هذا الواقع المؤلم لا يكون الا بتوعية المسلمين بدينهم وتبصيرهم بأنهم أمة واحدة كتابها واحدا ، ونبيها واحد ، وان ما حدث من خلافات فى الاصول او الفروع انما مرده اسباب تتعلق بمنهج الاستنباط أو درجة الوثوق بالحديث أو الاختلاف فى تفسير النصوص .. ونحو ذلك وكله محتمل ولا يجوز أن يترتب عليه اختلاف القلوب والتعادى ، وتفرق الامة شيعا ...

ـــ وهنا تتضح أهمية الموسوعة الفقهية اذ تعرض الحكم فى كل مسألة من مختلف وجهات النظر موضحة دليل كل رأى ، وبذلك تزول حدة الخلاف ، ويحل محله روح التسامح والتيسير ، اذ تتبين الاسباب الحقيقية لاختلاف وجهات النظر والتى نذكر منها :

١) ـــ غفلة كثير من المتأخرين عن تحذير الاسلام من التشدد فى الدين وعن حثه على التيسير على الناس ...

٢) ـــ عدم عناية المتأخرين بالتحرى عن ظروف كثير من أوامره صلى الله عليه وسلم وارشاداته : هل المراد منها أن تكون تشريعا عاما دائما ، أو تدبيرا خاصا ببعض الظروف دون بعض ، وقد يكون لها

قيود وملابسات اذا تخلفت لا يبقى الامر أو النهى أمرا أو نهيا .

٣) — غفلة كثير من العلماء عن أنه صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان يجيب السائل أو يأمر الرجل بما يناسب حاله هو ، وقد لا يناسب غيره ، فيكون الجواب النبوى خاصا به فلا يعمم على غيره من الناس ممن تختلف حالهم عن حاله .

٤) — اغترار كثير من المتأخرين بما نقل اليهم عمن سبقهم من دعوى الاجماع فى مسائل ليست فى الواقع — عند التحرى — محل اجماع .

٥) — تشديد بعض العلماء فى المندوبات والمواظبة عليها حتى اعتقد بعض العامة انها واجبة يأثم الانسان بتركها ، فزال الفارق المهم بين الفرعى والاساسى من الاحكام ، وما يستتبعه ذلك من التسامح فى الاول دون الثانى ، فكان ذلك من عوامل التنفير .

٦) — أن يكون العمل الذى حصل من النبى صلى الله عليه وسلم قد حضره جمع من أصحابه ، ولما تفرقوا فى البلاد روى كل واحد جانبا فقط مما حصل لانه هو المتعلق بالمقصود المبحوث عنه وأغفل غيره أو لم يتنبه له . فمن لم يتحروا الدقة فى مثل ذلك بجمع جميع الروايات لتظهر الحقيقة كاملة تتفرق بهم السبل ويختلفون ، وينكر كل منهم على صاحبه ما هو حق فى الواقع لا يصح انكاره .

٧) — ان يخفى على العالم المجتهد حال راوى الحديث ، فيروى عنه مع أنه ليس بثقة فى الواقع ، وبذلك يكون الحكم الذى أخذ من الحديث غير صحيح ، فيخالفه فيه غيره ممن يعلم حقيقة حال الراوى .

(والامثلة على هذه الاسباب كثيرة فليراجعها القارىء ان شاء فى « الاحكام » لابن حزم « ورفع الملام » لابن تيمية « والموافقات » للشاطبى و « ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين » للشيخ عبد الجليل عيسى « وأسباب اختلاف الفقهاء » للشيخ على الخفيف ، وفى غيرها من المصادر القديمة والحديثة) .

— وسيتضح أيضا نتيجة لمنهج الموسوعة فى عرض اختلاف الآراء الفقهية — ان الخلافات ليست مقتصرة على المذاهب فيما بينها ، وانما حدثت الخلافات الكثيرة داخل المذهب الواحد فاختلف فى كثير من المسائل — داخل المذهب الحنفى مثلا — الامام أبو حنيفة نفسه مع صاحبيه ابى يوسف ومحمد ، كما اختلف ابو يوسف مع الامام ومحمد ، وكما خالف الجميع زفر . . .

وهذا نفسه أيضا قائم فى المذاهب الاخرى . . . ولم يترتب على ذلك ان انقسمت هذه المذاهب وتعادى أصحاب كل منها فيما بينهم نتيجة لهذه الخلافات الداخلية فى المذهب الواحد . وما ذلك الا لان وجود المذهب وتميزه انما يرجع الى مبادىء وأصول يبنى عليها وليس الى العصبية لاصحاب الرأى نتيجة اختلافهم مع الرأى الآخر ؟

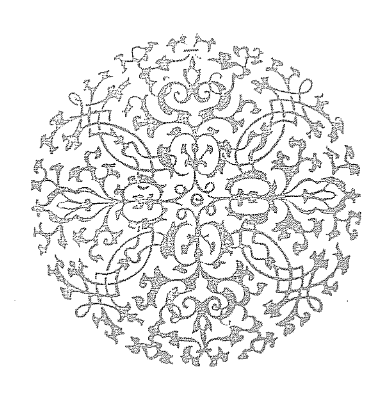
فما صلح سببا لهذا التسامح بين أصحاب المذهب الواحد وان اختلفوا يصلح سببا لتسامح مماثل مع أهل مذهب آخر لان منشأ الاختلاف واحد فى الحالين .

ـ ويتضح كذلك من بحث الخلافات الفقهية ان هناك مذاهب أخرى غير التى يتبعها المسلمون الآن اندثرت ولم يعد لها اتباع كمذهب الاوزاعى والليث والثورى ... ، بل ان بعضها لم تدون له كتب وانما عرفت آراؤها مبعثرة من كتب التفسير أو كتب المذاهب الاخرى .

ـ والمذاهب التى بقيت لا يرجع بقاؤها الى حيويتها فحسب وانما الى نشاط اتباعها فى خدمتها وجمعها ونشرها وتعليمها ، وفرضها أحيانا بواسطة الحكام اما مباشرة أو بصورة غير مباشرة نتيجة لتعيين القضاة من مذهب معين . (تراجع رسالة أحمد تيمور عن انتشار المذاهب الاربعة) .

ـ ويتضح كذلك ـ نتيجة لمنهج الموسوعة فى عرض الخلافات ـ ان مسألة معينة قد يتفق فيها رأى المذهب الحنفى أو أحد أئمته ـ مع رأى المالكية والاباضية ، بينما يتفق المذهب الحنفى فى مسألة أخرى مع رأى الامامية والزيدية والحنابلة ، وهكذا ... أى أن تصنيف المواقف المختلفة لا يأتى على نظام رتيب واحد بأن تكون مذاهب أهل السنة مثلا على رأى واحد وتخالفها مذاهب غير أهل السنة ، أو أن يكون رأى الاباضية مثلا مختلفا على طول الخط مع رأى الشيعة ... ذلك لان الخلاف فى الحقيقة لا يأتى نتيجة التعصب والتحزب وانما للاسباب التى اشرنا الى بعضها ...

نخلص مما تقدم الى ان اخراج موسوعة فقهية تضم آراء المذاهب الاسلامية يحقق مصلحة جوهرية هى تأكيد وحدة الامة الاسلامية رغم تعدد المذاهب الفقهية فيها ، وتنبيه أتباع هذه المذاهب الى الاسباب الحقيقية للخلاف فى الرأى مما يخفف حدة النزاع وينشر التسامح ويحقق المبدأ الحكيم بأن نتعاون فيما اتفقنا عليه ، وأن يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ، وهذا أول الطريق نحو الوحدة الاسلامية المنشودة باذن الله .



الصومال

نبذة جغرافية

تقع الصومال فى الزاوية الشرقية من القارة الافريقية فتمتد على الساحل الافريقى المطل على باب المندب (بوابة البحر الاحمر الجنوبية) حتى حدود كينيا جنوبا .

وهى بمحاذاة القسم الجنوبى من شبه جزيرة العرب . وتبلغ مساحة الصومال حوالى ٢٧٠ر٠٠٠ ميل مربع . اما سكانها فكلهم مسلمون ينطقون العربية الى جانب لغتهم الافريقية وعددهم يقارب الخمسة ملايين وعاصمة الصومال مقديشيو ، وأهم موانئها بربرة وزيلع وبندر قاسم . ومعظم أراضيها صحراوية وخاصة فى الشمال حيث تكثر المراعى والثروة الحيوانية ، أما المناطق الجنوبية وهى التى استولت عليها الحبشة عنوة ففيها أخصب الأراضى الزراعية .

لمحة تاريخية

تنتسب القبائل التى يتألف منها الشعب الصومالى اليوم الى قبيلة قريش العربية التى هاجر بعض أفرادها من العرب المسلمين الى الصومال فى القرن السابع الميلادى ، وكان على رأس هؤلاء ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم عقيل بن أبى طالب .

قام هؤلاء المسلمون بنشر الاسلام فى بلاد الصومال حتى تكونت سلطنات اسلامية فى كل من زيلع ومقديشيو ولقد تأسست سلطنة زيلع فى القرن الميلادى نفسه ، وما أن جاء القرن الثالث عشر الميلادى حتى اتسعت رقعتها ، وحلت محلها امبراطورية اسلامية سميت امبراطورية العدل ، وكانت تمتد من خليج

إعداد : إدارة الشؤون الاسلامية

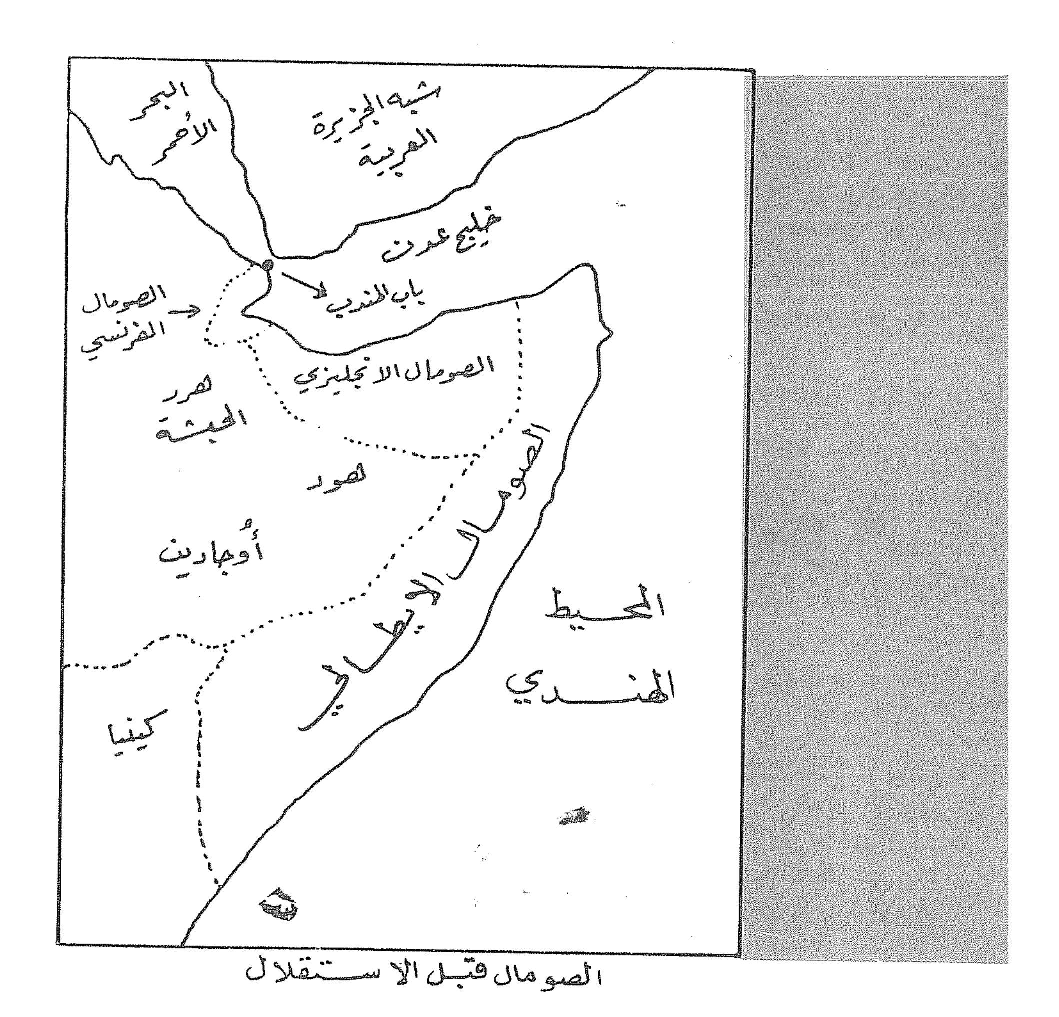
بين الأمس واليوم

عدن حتى مدينة هرر التى تقع تحت سلطان أثيوبيا فى الوقت الحاضر ، وكان أبرز حاكم لهذه الامبراطورية رجلا يدعى الامام أحمد بن ابراهيم الغازى (١٥٠٦ — ١٥٤٣) فقد استطاع هذا الحاكم الاستيلاء على أجزاء كبيرة من أثيوبيا (الحبشة) وتغلغلت قواته شمالا حتى وصلت الى منطقة كسلا فى عام ١٥٣٥ ميلادية كما نجح فى القضاء على القوات الأثيوبية قضاء تاما مما اضطر امبراطور أثيوبيا الى الهرب الى الجبال .

لكن الأثيوبين استعانوا بالبرتغال فجاءت قواتها لنجدتهم فى عام ١٥٤١ واستطاعت بمعاونة الأثيوبين الحاق الهزيمة بالامام أحمد ثم تمزقت امبراطورية العدل عند وفاته فى عام ١٥٤٣ . أما سلطنة مقديشيو فقد ظلت مزدهرة فى القرن الرابع عشر وحافظت على استقلالها حتى القرن السادس عشر ، أما فى مسقط الى عمان وزنجبار وذلك فى مطلع القرن التاسع عشر أعطيت مقديشيو الى سلطان زنجبار ، أما بقية المناطق فقد ظلت مدة طويلة تحت حكم شيوخ صوماليين .

الاطماع الاستعمارية

لم تنج الصومال من الاطماع الاستعمارية ففى نهاية القرن التاسع عشر وضعت بريطانيا قدمها فى البلاد وجعلت لنفسها منطقة نفوذ فيها ثم تلتها فرنسا التى استولت على منطقة جيبوتى فى الشمال ، وأقامت ما يسمى بالصومال الفرنسى . وبعدهما جاءت ايطاليا وأقامت لنفسها منطقة نفوذ فيما تبقى من البلاد .



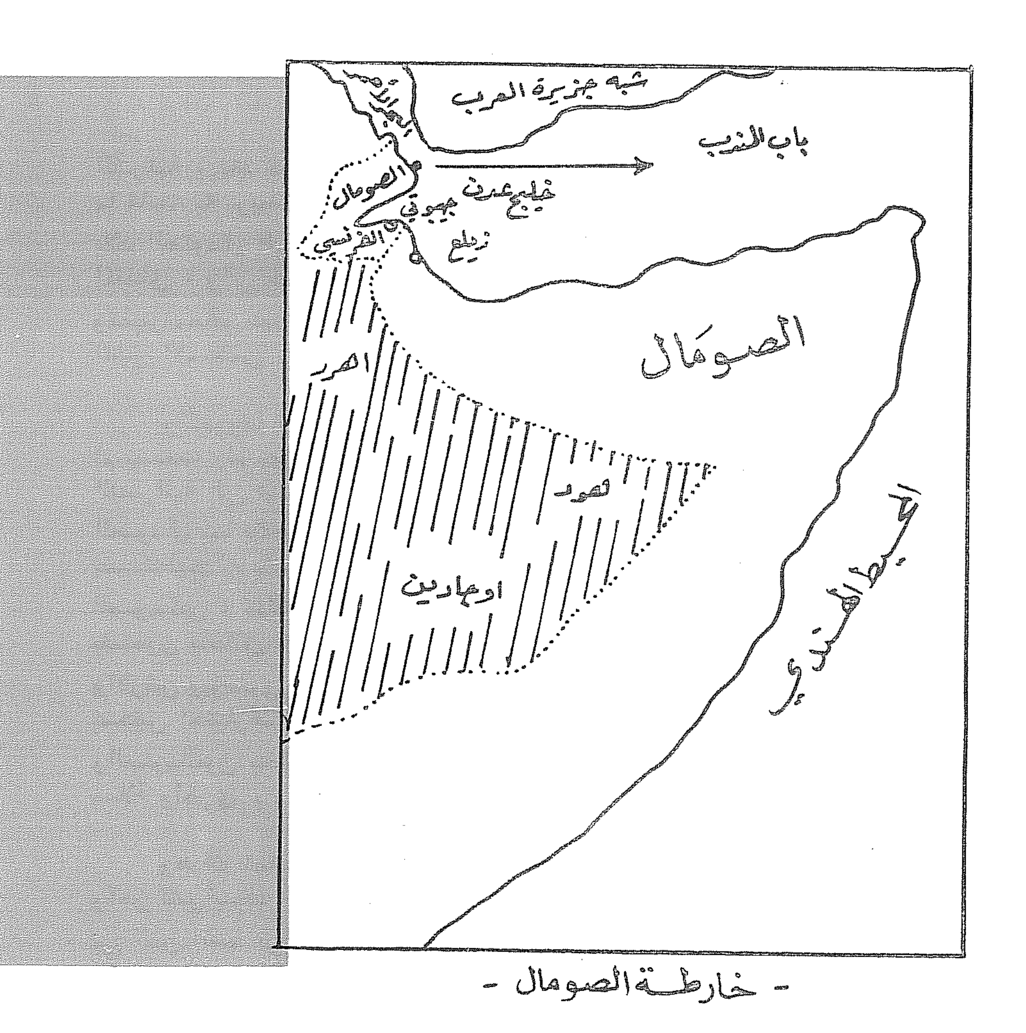
الصومال قبل الاستقلال

الاســـــــتقلال

هب الشعب الصومالى المسلم لمقاومة النفوذ الاستعمارى فأخذ يناضـــل من أجل الاســـتقلال ، وحارب تحت قيادة الســـيد محمد بن عبد الله حسن لمدة عشرين عاما ونيف قاوم خلالها كلا من الانجليز والايطاليين لكنه لم يكســـب تلك الجولة .

وفى عام ١٩٤١ خرج الحلـــفاء منتصرين من الحرب العالمـــية الثانية ، واستولوا على ممتلكات دول المحور فاستولت بريطانيا على جميع الصـــومال ومنطقة أوجادين وأخضعتها لارادتها العسكرية ، ومنحت أثيوبيا استقلالها بعد أن أخضعها الايطاليون ابان الحرب .

ثم عقدت بريطانيا معاهدة مع الحبشـــة سـلمتها فيها منطقة اوجادين الصومالية وفى عام ١٩٥٠ وضعت الصومال الايطالى تحت وصاية الامم المتحدة وبعدها بقليل سلمت بريطانيا منطقتى هود والمنطقة المحايدة الى الحبشة وهكذا أصبحت ثلاث مناطق صومالية تحت نير الاحتلال الأثيوبى . ثم أعلن اســـتقلال



- خارطة الصومال -

القرن السابع عشر فقد ضمها سلطان مسقط تحت لوائه ولما تم تقسيم دولة الصومال وبقيت تلك المناطق غير محررة وهاهى تناضل من أجل التحرير ، فقد قامت فيها ثورة يزداد أوارها يوما بعد يوم .

الموارد الاقتصادية

تعتبر الثروة الحيوانية أهم الموارد الاقتصادية فى الصومال فيبلغ عدد الابل فيها اكثر من مليون ونصف رأس ، هذا بالاضافة الى الماشية والأغنام ، ومن موارد البلاد الصيد اذ توجد كميات هائلة من سمك التونه فى المحيط الهندى ، هذا بالاضافة الى الثروة الزراعية فى الجنوب ، كذلك توجد ثروة معدنية فى البلاد ، ويعتبر الصومال من أهم البلاد المنتجة للبخور فى العالم .

الاسلام فى الصومال

لما كان انتشار الاسلام فى الصومال يعنى تسربه الى بقية مناطق افريقيا

الشرقية ، فقد قام أعداء الاسلام باغلاق الأبواب دونه وحصره ، ومن ذلك ما قامت به بريطانيا فى منتصف الخمسينيات من تسليم ثلاث مناطق من أخصب بلاد الصومال الى الحبشة ، وبالاضافة الى الثروات الضخمة التى تنتجها هذه المناطق ، والى جانب أسباب القوة التى تستفيدها الحبشة منها لمحاربة المسلمين وتغيير معالم حياتهم أصبحت هذه المناطق بمثابة أقفال كبيرة أوصدت الباب أمام التيار الاسلامى .

والمعروف أن الصومال لم تتأثر بحملات التبشير المتكررة والاسلام فيها لم يضعف ولم يهن ، بل ظل كيوم دخوله اليها ، بل لقد أدت حملات التبشير النصرانية الى تمسك الصوماليين بدينهم ، وقد حدثنا بعض الأخوة القادمين من الصومال بما يثلج الصدر ، فعلى سبيل المثال لاتجد فى الصومال كلها مسلما يستطيع أن يشرب الخمر علانية مهما أوتى من سلطة حتى غدا ذلك طبيعة الصوماليين ، كذلك فقد لاحظ الأخ الزائر الذى قدم من الصومال أن الصوماليين يتمتعون بأخلاق فاضلة فلا يكذبون ولا ينافقون ولا يعتقدون الا فى خالق السماء والأرض ويؤمنون بالعمل والجد ، كما أن لديهم اهتماما خاصا بالمساجد فيقومون بمحض اختيارهم ببنائها وصيانتها كما أن المساجد زاخرة بالمصاحف الشريفة ، والصوماليون يحافظون على الصلوات الخمس فى المساجد لا فرق عندهم بين صلاة وأخرى .

وهناك تعليم دينى خالص فى الصومال ففى العاصمة معهد دينى ضخم وآخر للدراسات الاسلامية ومدرسة للقضاء الشرعى ، كما أن أكثر المساجد فى المدن تضم دراسات مسائية دينية ، كما أن من أهم المراكز الاسلامية المركز الثقافى الاسلامى الذى يقوم بتنظيم المحاضرات الاسلامية وعرض الأفلام الدينية ، كما أنه يشتمل على ركن خاص بالخدمات الطبية المجانية وركن آخر للمكتبة .

الطرق الصوفية

وهناك اهتمام كبير بالطرق الصوفية فهناك القادرية والصالحيه والرفاعية وقد لعبت هذه الطرق دورا بارزا فى حماية المسلمين من الغزو التبشيرى النصرانى .

وبعد ، فمما هو جدير بالذكر أن الصومال تعتبر نفسها بلدا عربيا ، ومن هنا تقدمت بطلب للانضمام الى جامعة الدول العربية فهى تهتم بقضايا المسلمين ، وشاركت فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ فأرسلت مجاهدين ولقد آن الآوان أن يعرف العرب المسلمون اخوانهم ، وأن يشدوا على أيديهم فذلك نصف الطريق الى العزة والنصر .

والى حلقة أخرى من اعرف وطنك أيها المسلم والله الموفق .....

مكتبة المجلة

الربا ودوره فى استغلال موارد الشعوب

كتاب يتناول فيه مؤلفه **الدكتور عيسى عبده** السياسات الاقتصادية وتمويل البلاد ، وقرض الاستهلاك وتوزيع الثروات بين الشرق والغرب ، ورؤوس الأموال ، مع عرض عام لمجرى الأحداث الاقتصادية بين عام ١٩٥٣ م وعام ١٩٥٩ م . والكتاب ضمن سلسلة **مفاهيم اقتصادية** التى تصدرها دار البحوث العلمية فى بيروت ويشتمل على ٨٦ صفحة .

خصائص اجتماعية خالدة

الجزء الاول من السلسلة التى تصدر بهذا العنوان من تأليف فضيلة العلامة الشيخ عبد الوهاب الأعظمى ، وفى هذا الجزء دعوة الى الاصلاح والنهوض بالكرامة البشرية التائهة فى بيداء الضلالات واحياء العدالة الاجتماعية والرجوع الى رسالة السماء التى تهدف الى الحق ، طبع الكتاب فى مطبعة أسعد ببغداد .

بدع التفاسير فى الماضى والحاضر

كتاب يوضح اتجاهات المفسرين ويبين الانحرافات التى وردت فى كتب المفسرين على اختلاف عصورها ومذاهبها ، وقد جمع مؤلفه **الدكتور رمزى نعناعه** هذه الافكار المنحرفة والتأويلات المحرفة لكتاب الله ، وأرجعها الى أسبابها ودوافعها التى دفعت بقائليها الى أن يسودوا بها صحائف تفاسيرهم .

والكتاب يحتوى على ثمان وثمانين صفحة ، ومن منشورات وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالملكة الأردنية الهاشمية .

نظرية الضمان

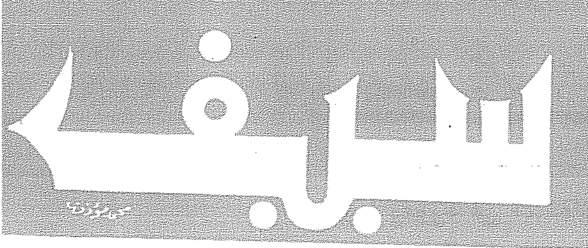
كتاب يبحث فى نظرية ضمان الأنفس والأموال بسبب الاعتداء عليها عمدا أو خطأ مع الاهتمام بالنواحى العملية والحلول الواقعية لمشكلة التضمين ، والكتاب يعتبر دراسة مقارنة فى الفقه الاسلامى لأحكام المسئولية المدنية والجنائية وهو من تأليف الدكتور وهبه الزحيلى أستاذ الشريعة الاسلامية بجامعة دمشق ، ومن طبع دار الفكر ويحتوى على ٣٦٦ صفحة .

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الارشاد والأنباء فى الكويت وهى مجلة أدبية علمية تهتم بالموضوعات العصرية فى شتى مجالات الفكر والمعرفة ، وقد صدر منها حتى الآن العددان . الأول والثانى . ويحتوى كل عدد على ٢٨٠ صفحة وتطبع فى مطبعة حكومة الكويت .

المملكة العربية السعودية عند مفترق الطرق

كتاب من تأليف الاستاذ فهد خالد السديرى .. استعرض فيه تاريخ المملكة العربية السعودية منذ نشأتها الى وضعها الحالى ، وقد أفرد فيه فصولا عن التطور الاجتماعى والوضع الاقتصادى فى المملكة والكتاب من طبع دار الكتاب العربى فى بيروت . ويقع فى ١٢٨ صفحة .



قصة
إسلامية
قصيرة



للدكتور : نجيب الكيلاني

كلمات وداع لا ينطق بها اللسان ، ولكنها ترف فى القلوب ، وتطل من العيون الدامعة ، بل وتلمسها فى لفتات الناس وتعبيرات وجوههم ، وهم يشهدون محمدا ورجاله يرحلون عن مكة بعد الايام الثلاثة المشهودة التى زاروا فيها البيت الحرام وأدوا الشعائر ، طبقا لما قرره صلح الحديبية ، وعاد محمد والمسلمون الى الطريق الذى سيؤدى بهم الى يثرب ..

وتمتم خالد بن الوليد ، بينه وبين نفسه :

ذهبوا .. وتركونى وحدى أتمرغ فى أوحال الضلال والكبرياء الزائفة وداعا أيها الرجال لقد أحببتكم برغم الدماء والصراع الرهيب والعداء المستحكم ..

وكادت تفلت من عينيه الدموع لولا أنه عصى الدمع ، متمالك لأعصابه وعواطفه ، وتطلع خالد حواليه ، نفسه تطفح بكراهية شديدة لكل ما يراه ، انه يشعر الآن بنفور شديد من الناس والارض .. والبناء .. والجياد ، يسمع حوار القوم وصخبهم ، فتموج نفسه بضيق بالغ واشمئزاز لا حد له ، لقد أصبح يشعر بغربة قاتلة ..

أجل .. غربة .. الضجيج من حوله ، والاصدقاء يلقون عليه التحيات ، ويبتسمون له ، وأبو سفيان يبش لمقدمه ، ويحدثه عما تطورت اليه الامور ، وعكرمة بن أبى الجهل يجادله فى أمر المعارك التى لا بد أن تبدأ من جديد ، مظهرا عدم اكتراثه بالصلح المؤقت .. وخالد صامت .. زاهد فى كل شىء يكره أن يتكلم أو يأكل أو يشرب .. نومه متقطع مرهق تثقله الاحلام والافكار والحيرة .. وشعور الغربة يزداد رسوخا فى روحه وعقله .. حسنا .. فليذهب الى بيته ، لعله — بين أهله — ينسى ما يعانيه من آلام وأحزان وغربة .. ودلف الى البيت ذاهلا شارد النظرات ، يشوب وجهه شحوب خفيف ، يا للمأساة .. البيت هو الآخر يبدو لعينيه وكأنه سجن ضيق رهيب يكاد يكتم أنفاسه .. لا يتنسم فيه ريح الالفة أو يشم منه عبير الحنان والامان ..

وهتفت زوجه فى قلق :
ــ ما بك يا ابن الوليد ؟؟
تمتم فى شرود حزين :
ــ لقد رحلوا ..
ــ لا أفهم شيئا ..
أفاق الى نفسه ، وأدرك أن الكلمات تخرج منه دون وعى فاستدرك قائلا :
ــ أشعر بكرب شديد ..
لمست جبهته ، فخيل اليها أنها تلتهب ، فهتفت فى قلق :
ــ أمحموم أنت ؟؟
ابتسم وقد تندى جبينه بالعرق وقال : لا شىء من ذلك .. اننى بخير عندما ينشغل الفكر بأمور خطيرة ينسى كل ما حوله ، تتجسم الافكار .. تتحول الى أشباح تتحرك ، فيبدو فكرى وكأنه ميدان قتال ، وتنهد فى شىء من الارتياح بينما فغرت زوجه فاها دهشة ، ثم صرخ :
ــ أيمكن أن يكون كل ذلك زيفا وخداعا ..؟
قالت ، وقد استبد بها الخوف والحيرة :
ــ مــاذا ؟؟
قال : الماضى الطويل .. المعارك المدوية .. البطولات العريقة .. الخطب الرنانة .. آرائى التى كان يطرب لها السامعون ، ويصفق لهــا أشراف مكة .. هل هذا كله كان وهما وسرابا ؟؟ أنا لا أصدق ..
حسنا .. يجب أن أعترف .. الصمت جريمة أحيانا .. الكذب جريمة ، الكلام الزائف دعارة ، والخوف راس الرذائل ، والمعارك التى ينتصر فيهــا الشر عار أبدى .. بل هزيمة نكراء لروح الانسان .. ليس هناك أى عذر لرجل يعرف الحق ولا يعبر عن ذاته .. كان محمد وحده .. ونادى بأعلى صوته أيها الناس انى رسول الله انصرفوا عنه كذبوه سخروا منه .. طاردوه .. لكنه قالها ، أية سعادة عظمى شعر بها بعد أن نادى بتلك الكلمات وحده دون خوف أو تردد ؟؟
دقت زوجه على صدرها فى خوف وقالت :
ــ اننى لا أصدق أذنى .. انك تهذى .. الصمت جريمة ، الكلمــات دعارة .. ماذا ؟؟
أخذ يلهث ، ويجفف عرقه . ثم جلس وهو يتمتم :
ــ هل أنت هنا ؟؟
ــ واكرباه .. لقد ألم بك داء خبيث .
رفع خالد عينيه الى السماء ، وهمس فى خشوع ورقة وضراعة :
ــ لا أرى سواه ..
ــ من يا خالد ؟؟
ــ ذلك الذى أثرى وجودى ، وأنار بصرى وبصيرتى ، واستطاعت كلماته أن تهزنى من الاعماق ، وأنا الذى تتزلزل الجبال ولا أتزلزل ..
دق قلبها ، نذر العاصفة تتجمع فى أفق البيت العريق ، لم يعد الامر خافيا عليها ، لكنها برغم ذلك اقتربت منه ، وجلست الى جواره ترتجف ، ولمست كتفه فى حنان ، فسمعته يقول :
ــ لقد رحلوا .. تركونى وحدى غريبا .. تسمرت قدماى فى الارض

القذرة ، وتيبست أعضائى حاولت أن أتحرك فلم أستطع .. حاولت أن أهتف بكلمة وداع ، فتساقطت حروف الكلمات مبعثرة .. ساخرة دون معنى .. قيود خبيثة كانت تشدنى الى الارض ، وتخرس لساني لأنى .. لأنى خائف .. أتصدقين ؟؟ خالد يخاف ؟؟ أنت فارس العرب المغوار .. كيف تخاف ؟؟

ــ أجــل ..

وقهقه فى سخرية مرة وقال :

ــ بالامس كانت تلك الكمات تسكرنى ، أما اليوم فهى كلمات سخيفة تثيرنى : وتتسلل الى نفسى كسهام العار .. أية فروسية تقصدين ؟؟ البطولة الحقيقية لم أتوج بها حياتى بعد .. آه .. فى يوم ((أحد)) زحفت بخيلى أريد قتل محمد .. لو حدث ذلك .. لــكتب التاريخ : فى عنق خالد دم نبى .. ولأصبحت سبة الاجيال ..

قالت فى دهشة :

ــ دم نبى ؟؟!

ــ نعــــم ..

ــ أتؤمن بنبوته ؟؟

ــ نعم .. نعم .. حينما حطمت القيود وأزحت العصابة عن عينى ، وفتحت نوافذ قلبى وعقلى ، تدفق النور فرأيت الحقيقة ، لا يصح أن أقولها هنا .. سوف أخرج الى الشارع ، وأصيح بأعلى صوتى .. أيها الظمــاء هذا النبع ، أيها الجياع الى الزاد الذى لا ينفد .. يا أبالسة الشر حطمــوا مزاميركم ، واهرقوا الكؤوس .. وامحقوا الاناشيد اللعينة فعالمكم هباء .. واقصدوا محمدا ..

وخرج خالد الى الشارع ، وأخذ يحث الخطــا مرفوع الهامة ، يدق الارض بقدميه وكأنه يسحق الخوف والوجوم والزيف ، فرأى جمعا من الناس فقصدهم على الفور ، ورفع عينيه عاليا ، ونادى بكلمات واضحة قوية :

ــ أيها الناس ..

لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولا ساحر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه ، لكأنما انقضت على الرءوس صاعقة مباغتة ، فأخرست الالسنة وجحظت العيون ، بينما أخذ خالد يشق طريقه بينهم جيئة وذهابا ، ويسدد اليهم نظرات الثقة والاصرار والتحدى ..

لكن قهقهة انطلقت وسط الصمت المثير ، وتقدم عكرمة بن أبى جهل قائلا : ــ ((انه مزاح ثقيل)) ..

قال خالد ، وقد تصلبت ملامح وجهه :

ــ أنظر الى جيدا .. أنت تعرف من أنا ..

اربد وجه عكرمة وقال :

ــ لقد صبؤت يا خالد وتنكرت لدين الآباء ..

ــ لم أصبؤ ، ولكنى أسلمت ..

ــ والله أن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت .. ــ لم ؟؟ لأن محمدا وضع شرف أبيك حين جرح ..

وقتل عمك وابن عمك ببدر ..

فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد ... أما رأيت قريشــا يريدون قتاله ؟؟ لم تثره الضغائن القديمة ، ولم يحنقه حديث عكرمة الماكر ، بل رد فى هدوء :

ـــ هذا أمر الجاهلية وحميتها لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق .
وساد هرج ومرج ، وانطلق حملة الانباء يجرون هنا وهناك ليذيعوا النبأ الخطير ، بعضهم هرول الى أبى سفيان بن حرب ، والبعض الآخر طرق الباب الخلفى لهند زوجة أبى سفيان ، وطائفة ثالثة وقفت ، ترقب الاحداث ، أترى تسل السيوف من أغمادها ، وتندلع الفتنة ، وتغرق مكة فى بحر من الدماء .. وتنهزم مكة من داخلها قبل أن يفكر محمد فى فتحها ؟؟
وتمتم عكرمة بن أبى جهل بينه وبين نفسه : لو انقضت قواتنا على محمد وصحبه وهم يطوفون بالبيت العتيق لاستطعنا أن نخمد تلك الفتن ، ولاستطاعت الحرب بوهجها وعنفها ودمائها ، أن تسحق كل فكر متردد ، أو عابث متمرد ، لكن حماقة ((العقلاء)) المتشبثين ببنود الصلح ، قد أضاعت الفرصة .. فليجنوا جزاء تقاعسهم وحكمتهم الرعديدة .. واختلطت الكلمات وحمى الجدل ، وخالد صامد كالطود ، وساد الصمت حينما نادى المنادى :
((يا ابن الوليد ، ان أبا سفيان قد أرسلنى فى طلبك)) .. وازداد الناس شغفا بتتبع الاحداث ، ان رجلين كبيرين عاشامعا ، وحاربا معا ، قد دب الشقاق بينهما ، وكل منهما قادر على التحدى ، وهمس أحد الحاضرين فى أذن زميله : عندما يتناطح كبشان قويان أشعر بسعادة عظمى ، معركة ممتعة لاشك .. واصطدام الرؤوس له صوت جميل يأسرنى ، هيا بنا ..
لا شك أن الحادث قد أثار أبا سفيان لأبعد مدى ، حتى انه لم يجادل خالدا فى شيء من الهدوء والاناة والذكاء تلك الصفات التى عرف بها ، لقد صاح أبو سفيان متوعدا :
ـــ أحق ما بلغنى عنك يا خالد ؟؟
ـــ أجل ..
ـــ واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد ..
هتف خالد فى اصرار وتحد :
ـــ والله انه لحق على رغم من رغم ..
ارتجت رأس أبى سفيان بدوى عاصف ، هم قاتل يمتزج بحقد هائل ، وماض رائع من زمالة الحرب والفكر ، وحاضر أسود يوحى بالقطيعة والفشل وشماتة الأعداء ، ومستقبل غامض تتشابك فيه الرؤى والاحداث تشـــابكا مخيفا ، واندفع أبو سفيان نحو خالد يريد أن يهوى على رأسه ووجهه بقبضته المتشنجة لكن عكرمة حال بينهما ..
وقال عكرمة فى حزن عميق :
مهلا يا أبا سفيان ، فوالله لقد خفت للذى خفت ، أن أقول مثلما قال خالد ، وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالدا على رأى رآه ، وقريش كلهـــا تبايعت عليه .. والله لقد خفت ألا يحول الحول ، حتى يتبعه أهل مكة كلهم..
ودمدم أبو سفيان فى حنق ويأس :
اذهبوا عنى ، لا أريد أن أرى وجوهكم ، انفض الناس ، ومضى خالد ، بينما بقى عكرمة ، وظل الى جوار أبى سفيان مهموما حزينا ، ثم قال :
لا تأس يا أبا حنظلة .. لن يضير المعركة أن يتخلف عنها رجل ، أطرق أبو سفيان مرتعش اليدين وغمغم :
ـــ يا له من رجل ..
وعلمت يثرب باسلام خالد حينما بعث الى الرســـول بأفراس أصيلة كهدية ، وتعبيرا عن حبه وولائه وبعد أيام شهدت مشارف المدينة ، سيف الله خالد ، يدخل خاشعا الى قلعة النور والايمان ..

بأقلام القراء

الصهيونية والأحقاد القديمة

من كلمة كان قد بعث بها الشيخ سليمان حسن عبد الوهاب من علماء الأزهر عن احتقاد اليهود حكى فيها :

يقول التلمود (كتاب مقدس لدى اليهود) الاسرائيلى خلق من طينة سامية غير طينة البشر وجميع البشر الذين لا يعتنقون اليهودية حيوانات لا تعقل وهم خدم واتباع لليهود ، والسموات والأرض خلقت لليهود ولم تخلق لأحد سواهم وهم آلهة الأرض ولعل خير دليل نسوقه على محاربة الصهيونية للمسيحين ما كتبه الاب الامريكى « همفرى والتز » الذى أصبح صديقا للعرب ، وخرج عن الصهيونية نائبا بعد أن تابل المطران حكيم نفسه فى حيفا وقال الخبر الآتى : « الذى نزل على راسه كالصاعقة ، اذ قال له المطران (ان عدد المترددين على الكنائس للصلاة يتدهور بسرعة نتيجة للارهاب اليهودى ، وان أراضى المسيحيين العرب تصادر ، كما تصادر أراضى المسلمين وان منازلهم واحيانا قراهم ، تهدم عن بكرة أبيها دون سبب وان قبور الكاثوليك فى حيفا قد نبشها اليهود عام ١٩٥٦ وأنهم احالوا بعض الكنائس الى استطبلات وثكنات عسكرية وانهم لا يستطيعون الانتقال من بلدة الى اخرى ولو للعلاج الا بصعوبة بالغة ، وان الحكومة الاسرائيلية تشجع روح الاحتقار ضد المسيحيين والمسلمين على السواء) وما نشر هذا التصريح عن الأب الامريكى والتز ، حتى أصبح هدفا لغارات عنيفة من السفارة الاسرائيلية فى واشنطن والمولين الصهيونيين فى أمريكا وان التلمود والتوراة يمتلآن بنصوص كثيرة جدا حول احتقار اليهود للأديان الأخرى ، واستباحة دمهم وحقوقهم وممتلكاتهم كما أن الانجيل يحفل بنصوص كثيرة حول وحشية اليهود وخياناتهم الفاجرة ضد الانسانية ، واليوم قد تجسد اجرام صهيون وتصعد عدوان اليهود على العرب ، وارتفعت درجة الطغيان عندهم الى قمة السفه والطيش والحمق والبطش حيث أعلنوا فى وقاحة وكبرياء ضم الأراضى العربية المحتلة الى أرض يهودا ، وانهم يتخذون الاجراءات التعسفية لامتلاك أرض فلسطين العربية ، ولتكون تلك البلاد العربية التى استولوا عليها منا خلسة واغتصابا من سيناء الى الاردن ومن فلسطين والعريش الى مرتفعات سوريا ، ومن القدس الى الضفة الغربية لنهر الأردن (اسرائيل الكبرى) وقد أذاعوا فى صفاقة تعديل مناهج التعليم العربية فى تلك البلاد المغصوبة الى مناهج اسرائيلية وقاموا بحذف بعض

آيات القرآن . التى تشهد بلعنتهم وبغيهم وهم فى سبيل تغيير اللغة العربية واستبدالها باللغة العبرية اليهودية ، كما ينشئون ادارات للجمارك ليستولوا على رسوم الصادرات والواردات باسم حكومة اسرائيل ، ويجعلون من الاحتلال المهزوز صفة الامتلاك (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) ولتعلم اسرائيل ان هذا التغيير والتبديل فى الكيان العربى ، واتخاذ الاجراءات التعسفية ، من تغيير البطاقات الشخصية العربية الى بطاقات صهيونية استعدادا لتهويد العرب ، و لتحويل هذه البلاد العربية الأصيلة الى بلاد اسرائيلية واجراءات اسرائيل هذه ، بجرة قلم أو اذاعة خبر ، أمر لا تملكه ولن تقدر عليه . وليس فى استطاعتها أن تنفذه ، لأنه سيكون وراء ذلك أحداث عظام لا تطيق مواجهتها ، فاقدام اسرائيل على هذا العمل المخزى ، وقيامهم بتلك الاجراءات السفيهة دليل على نزق عقولهم وذهاب صوابهم . وانهم يسعون الى حتفهم بأظافرهم ويحفرون قبورهم بأيديهم ، واننا نحن العرب لن نرضى عن هذا الضيم ولن نسكت عن تلك المهانة . ولن نصبر على هذه الرعونة فلا بد أن نقاومهم بكل ما نملك من أرواح ومال وأن نكافحهم حتى آخر رمق من الحياة ، ونأخذهم أخذا شديدا ، حتى نزيلهم من المحيط العربى ونطردهم من فلسطين وما حولها من الأردن الى سيناء ، وأن نخرجهم أذلاء مشردين ، ليعودوا الى حياتهم الأولى (حياة الذل والتشريد) الذى ألفوه منذ التاريخ السحيق المتوغل فى القدم ، لأن البلد بلدنا . وذلك القطاع العربى المحتل ملك لنا دون غيرنا . والعروبة فيه قائمة من قبل ابراهيم واسماعيل . ومن قبل عيسى وموسى . والعروبة بتلك البلاد متأصلة وثابتة بالتاريخ الصحيح من أيام العرب البائدة التى كانت تسكن تلك البقاع من شمال المحيط الهندى واليمن الى البحر الابيض المتوسط . ولا تزال آثارهم باقية بمدائن صالح بين المدينة وسوريا . وكان الكنعانيون يسكنون تلك البلاد من قبل ولادة اسرائيل . سيدنا يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام « بأربعة آلاف من السنين ، وتزويج اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام » من قبيلة جرهم ، التى كانت من نسل يعرب بن قحطان ، وملأ الجزيرة العربية بنسله الطيب المبارك . ثم جاء الاسلام على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النبى العربى المنزل عليه القرآن الكريم بلغة العرب فازداد العرب تمكينا وتشريفا بتلك الرسالة العربية ، وستبقى هذه العروبة قائمة وتعيش فى بلادها عزيزة مكرمة ، رغم أنف الصهاينة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ..

(الكاسيات العاريات)

تحت هذا العنوان بعث الينا الأخ عبد الخالق محمد يونس شركة الخزف والصينى بالقاهرة :

ويح النساء السافرا ت الوجه فى هذى العصور

العاريات الجسم فى ... برد وفى وقت الحرور
البائعات العرض فى ... أسواق دنيا بالشرور
فى النار تلقى رغمها ... هيهات تنجو من ثبور

●●●

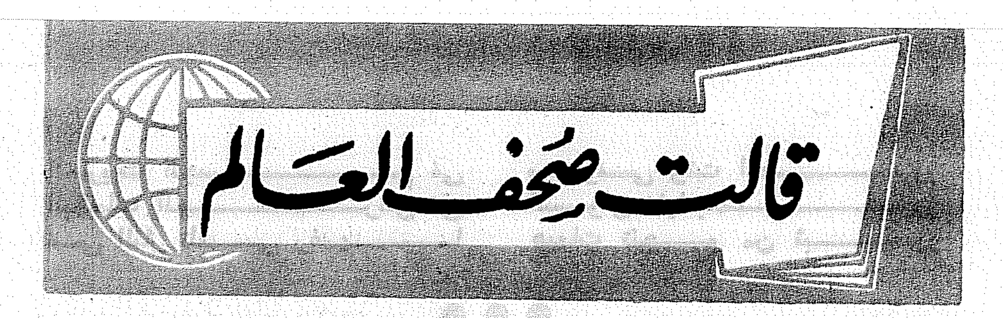
راحت تعرى بعضها ... بعضا فما أشقى الغرور
تبدو بثوب فاضح ... مخز ، ومؤذ للشعور
هانت عليها نفسها ... لم أرض تبيانا حذور
العين عفوا ان تراه ... النفس من ضعف تثور
يا كل أنثى كلها ... عارى حياء لا سفور
الله أوصى ذاكرا ... يدنين من زى ستور
جازوا النسا لا ترحموا ... ان شئتموا جازوا الذكور

●●●

والزوج بالصمت اكتفى ... صمت الخنا صمت القبور
يرضى لها ما قد تعرى ... ساء امرؤ ، ساء المشور
لو كان ذو عقل يعى ... أو كان ذو حس غيور
لم يرض زوجا ترتدى ... (مكرو) ولا يبدى نفور
زى السما أولى ولا ... تصميم من يدعى (ديور)
يا ليت شعرى يقتنى ... تاج الحيا غال المهور

●●●

يا قوم ما هذا العمى ... بعد الهدى ، فسق وبور
نسعى وراء الغرب فى ... طيش وفى حمق نسير
هذا وباء قد طغى ... اثم وبهتان وزور
قد ضل من ظن الدجى ... هديا وخسران الدهور
هل بعد شرع الله من ... شرع ، وشرع الله نور
بالذكر نحيا ليتنا ... للذكر نحيا .. للطهور



حضارة الانسان
بين الاسلام والعصر الحديث

تحت هذا العنوان كتبت مجلة الفكر الاسلامى اللبنانية فى افتتاحيتها تقول :

ان نظرة الاسلام الى الانسان ، ومركزه فى الكون ، مختلفة اختلافا أساسيا عن النظرة التى تنظر بها أوروبا ، وكل مجتمعات الفكر المادى الى الانسان ، منذ اللحظة الاولى ، لحظة الولادة « **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** » واذا كان الانسان فى صورته الظاهرة كائنا ماديا بحتا ، فليس كذلك فى « **تصويره** » ، والتصوير هو الذى أوضح القرآن انه « **السمع والابصار والأفئدة** » ، « **انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا** » . والانسان المسلم عندما ينظر الى الكون ، ويتحرك فيه ، ويستغله لمصلحته ، يراعى فى ذلك أنه وحدة واحدة « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** » فيها المادة البحتة ، وفيها الروحية الانسانية ، التى سماها الله عز وجل « **تصويرا** » ، وهو بناء على هذا لا يستطيع أن ينظر الى الكون من عل ، كفكرة مجردة كما فعل العقل اليونانى ، كما لا يستطيع أن ينظر اليه كمعطى حسى محض كما فعل العقل الاوروبى ، بل لا بد أن تسود الواقعية العملية الجانب الحسى من النظرة الى العالم ، على أن تكون محكومة بالغائية الانسانية التى هى ميزة الانسان الاولى ، فانطلاقا من وحدة الانسان ، الى وحدة العالم ، ثم الى وحدانية الله ، باعتباره عز وجل غاية الغايات ، ومناط اتجاه الروحية الانسانية فى حفاظها على ميزة الانسان الأولى ، وهى « **انسانيته** » ، تتشكل نظرة الانسان المسلم الى العالم ، تلك النظرة الاخلاقية التى توقف الانسان وحده أمام الله « **وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى** » والتى تدفعه بالتالى فى اتجاه الروحية الانسانية التى هى عمل علمى جاد فى ظل الله ، والعمل فى ظل الله ضمان لعدم الانحراف عن سواء الصراط ، « **اقرا باسم ربك الذى خلق** » ،« **فاذا فرغت فانصب . والى ربك فارغب** » ولا يعنى ذلك الا حرية الانسان وكرامته ، واستعلاءه على الميكانيكية والعضوية التى حكمت انسان العلم الحديث « **ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم** » .

كما نشرت جريدة الاهرام القاهرية مقالا للدكتور محمد ابراهيم كاظم بعنوان :

معالم تربية اسلامية لعصر حديث

قال فيه :

فى ضوء فهم للاسلام كحياة كاملة تقوم على الايمان بوحدانية الخالق ، ايمانا تظهر آثاره فيكل سلوك للفرد والمجتمع « **اياك نعبد واياك نستعين** » وفى ضوء تسليم بشمول الاسلام كرسالة لا ينظر الى جانب منها الا مرتبطا ببقية الجوانب « **اتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** » وفى ضوء معرفة لظروف الحياة الحديثة وتحليل لها وربط العصرية والتقدمية بمدى الاستفادة بأقصى ما وصل اليه عقل الانسان ووضعه فى خدمة الانسانية ضمانا لانطلاق وتقدم دون لبس او تقليد اعمى لمجتمعات قصر تقدمها على نواحى المادة فتمزق انسانها المنطلق فى فراغ العدم ، حيث ذبل الايمان وذبل النور الذى يمشى به هذا الانسان ، والذى يعطى لحياته حرارة ولوجوده معنى واستمرارا لا ينتهى بالموت .

فى ضوء هذا كله لا بد ان يقوم للمجتمع المسلم نظام تربوى قادر على تخريج افراد يملأهم الايمان بالله والثقة بالنفس كما يمتلئوا بأحاسيس الحرية والكرامة مع الرحمة والمحبة.

وفى واقع الامر فان للتربية الاسلامية عناصر محددة قد تظهر فى صور مختلفة باختلاف الامكنة والظروف ومراحل التاريخ ، ومن الضرورى أن نتنبه الى أن صيغ التربية الاسلامية فى عصر من العصور ليست بالضرورة صيغا ملزمة لعصر آخر .

فالنظام التربوى فى العصر الاموى او العباسى او قبل ذلك ليس اكثر او اقل اسلامية من اى نظام تربوى يقوم فى مجتمع اسلامى آخر إلا اذا رجعنا فى حكمنا هذا للعناصر المحددة الخاصة بالاسلام كدين وعقيدة ، وهى العناصر المشتقة من مبادىء الاسلام .

عناصر التربية الاسلامية

أ — اذا اعتبرنا أن المسلمين سواسية كأسنان المشط ، واذا التزمنا بأن المؤمنين اخوة يسعى بذمتهم أدناهم فلا مناص من التسليم بأن يكون مبدأ تكافؤ الفرص بين أفراد المجتمع هو الأساس فى أى نظام تربوى اسلامى ، لا فرق فى هذا بين غنى وفقير ولا بين ذكر وانثى .

ب — اذا سلمنا بأن غاية الخلق هو عبادة الخالق « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » فان مهمة التربية هى تطوير بصيرة الفرد واتاحة الفرص أمامه لكى يصل الى الايمان ، وأن يكون لهذا الايمان انعكاسات سلوكية حميدة فيكون خيرا ، شجاعا فى الحق ، قادرا على التفكير لنفسه واتباع الحق ، على أن يتم ذلك دون قهر أو اكراه . « **لا اكراه فى الدين** » « **وقولوا للناس حسنا** » « **وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن** » .

ج — واذا كان الانسان قد استخلف فى الارض ، وسخرت لمنفعته الشمس والقمر والسموات والأرض فمهمة التربية أن تمد الفرد بكل المعارف التى يصل اليها الناس ، كما أن مهمة التعليم أن تشحذ قدرة الفرد على الوصول الى المعرفة وفك أسرار الكون وكشف مجاهله .

وباختصار فان عناصر التربية الاسلامية تتجه بالفرد والمجتمع الى مزيد من النمو والكفاية ، ولكن النمو الذى نقصده ليس نموا فى فراغ ولا الى غير وجهة ، بل نمو متكامل متوازن .

بريد الوعي الإسلامي

اعداد الأستاذ
عبد المعطي بيومي

التبـرج

ما هي حدود التبرج المنهى عنه فى الاسلام ؟

وماذا ترون من العلاج لهـذه الظاهرة التى جاوزت كـل منطق وتحدت كل خلق ؟

عائشة المسلمى ــ الخرطوم

يقول فضيلة الشيخ سيد سابق فى الرد على هـذه الرسالة :

التبرج : اظهار ما يجب اخفاوءه ، واصله الخروج من البرج وهـو القصر ، ثم استعمل فى خروج المراة من حشمتها ، واظهار مفاتنهـا ، وابراز محاسنها ، وقد ورد التبـرج فى القرآن فى موضعين :

الموضع الأول فى سـورة النور حيث يقول الله عز وجل : « **والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحـا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينـة وأن يستعففن خير لهن** » .

والموضع الثانى ورد فى النهـى عنه ، والتنفير منه فى سـورة الأحزاب قال سبحانه : « **ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** » .

والتبرج غير التزين والتجمـل ، فالتبرج مناف للدين والمدنية ، وذلـك أن أهم ما يتميز به الانسـان عن الحيوان هو اتخاذ الملابس وأدوات الزينة ، يقول الله تعالى : « **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسـا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلـك من آيات اللـه لعلهـم يذكرون** » .

والحيـاة وهى تسير سيرهـا الطبيعى لا يمكن أن ترجع الى الوراء الا اذا حدثت لها نكسة تبدل آراءها وتغير افكارها ، وتجعلهـا تعود القهقرى ناسية أو متناسية مكاسبها الحضارية ورقيها الانسانى .

واذا كان اتخاذ الملابس لازما من لوازم الانسان الراقى ، فانه بالنسبة للمراة الزم لأنه هو الحفاظ الـذى يحفظ عليها دينها وشرفهـا وكرامتها وعفافهـا وحياءها ، وهذه الصفات الزم بالمراة ، ومن أجل هـذا كانت الحشمة أولى بها وأحق .

أن أعز ما تملكه المـراة الشرف والحياء والعفاف ، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على انسانية المراة فى أسمى صورها ، وليس من صالح المراة ولا من صـالح المجتمع أن تتخلى المراة عـن الصيانـة والاحتشام ، ولا سيما وأن الغريزة الجنسية هى أعنف الغرائز وأشدها على الاطلاق ، والتبذل مثير لهـذه الغريزة الحيوانية ومطلق لهـا من عقالها .

ووضـع الحـدود والسـدود

أمامها مما يخفف من حدتها ، ويطفىء من جذوتها ، ويهذبها تهذيبا جديرا بالانسان وكرامته ، ومن أجل هذا عنى الاسلام عناية خاصة بملابس المرأة ، وتناول القرآن ملابسها مفصلا لحدودها على غير عادة الكتاب الكريم فى تناوله المسائل الجزئية بالتفصيل ، فالله يقول :

« يا ايها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلايؤذين » .

وتوجيه الخطاب الى نساء النبى وبناته ونساء المؤمنين دليل على أن جميع النساء مطالبات بتنفيذ هذا الامر دون استثناء واحدة منهن مهما بلغت من الطهر ، ولو كانت فى طهارة بنات النبى ونسائه ، ومهما كانت مكانتها من العلم والثقافة .

ويولى القرآن هذا الامر عناية بالغة ، ويفصل ذلك تفصيلا فيبين ما يحل كشفه وما يجب ستره ، فيقول سبحانه :

« وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن » .

حتى ولو كانت المرأة عجوزا لا رغبة لها ولا رغبة فيها يقول الله عز وجل : « **والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن** » .

ويهتم الاسلام بهذه القضية ، فيحدد السن التى تبدأ بها المرأة فى الاحتشام ، فيقول عليه الصلاة والسلام « يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها الا هذا وهذا .. وأشار الى وجهه وكفيه » .

وابداء المرأة مفاتنها ، وتكشفها وعريها يسلبها أخص خصائصها ، ويهبط بها عن مستواها الانسانى ، وفى عهد النبوة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بعض مظاهر التبرج فيلفت نظر النساء الى أن هذا فسق عن أمر الله ، ويردهن الى الجادة المستقيمة ، ويحمل الأولياء والأزواج تبعة ذلك الانحراف ، وينذرهم بعذاب الله .

١ — عن موسى بن يسار قال : مرت بأبى هريرة امرأة ريحها تعصف فقال لها : أين تريدين يا أمة الجبار ؟ قالت الى المسجد ، قال : وتطيبت ؟ قالت : نعم . قال : فارجعى فاغتسلى فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يقبل الله صلاة من امرأة خرجت الى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل » .

٢ — وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد دخلت امرأة من مزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد فقال النبى « يا أيها الناس : انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد فان بنى اسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا فى المسجد » .

وقد بلغت ظاهرة التبرج فى عصرنا هذا مبلغا يأباه كل خلق وكل دين ، فأصبح من المعتاد أن يجد المسلم المرأة المسلمة متبذلة ، عارضة مفاتنها ، خارجة فى زينتها كاشفة عن صدرها ونحرها وظهرها وذراعها وساقها وما فوق ساقها ، ولا تجد

غضاضة فى ذلك ، واصبح من المألوف أن تعقد مسابقات الجمال تبرز المرأة فيها أمام الرجال ، ويوضع تحت الاختبار كل جزء من بدنها ، ويقاس كل عضو من أعضائها على مرأى ومسمع من المتفرجين والمتفرجات والعابثين والعابثات ، وللصحف وغيرها من أدوات الاعلام مجال واسع فى تشجيع هذه السخافات ، والتغرير بالمرأة للوصول بها الى المستوى الحيوانى الرخيص .

وقد بلغ هذا الانحراف حدا لم يكن يخطر بالخاطر ولا مناص من وضع خطة حازمة للقضاء على هذه الظاهرة ونرى أن ذلك يكون باتخاذ ما يأتى :

١ — نشر الوعى الدينى وتبصير الناس بخطورة الاندفاع فى هذا التيار المدمر .

٢ — سن قانون يحمى الاخلاق والآداب ومعاقبة من يخرج عليه بشدة وحزم .

٣ — منع الصحف وجميع أدوات الاعلام من نشر الصور العارية ، ووضع رقابة على مصممى الازياء .

٤ — منع مسابقات الجمال والرقص الفاجر ، وتحقير كل ما يتصل بهذا الأمر .

٥ — إختيار ملابس مناسبة تتفق مع حكم الاسلام .

٦ — يبدأ كل انسان بنفسه ، ثم يدعو غيره مع الاشادة بالفضيلة والصيانة والتستر ، وشغل أوقات الفراغ حتى لا يبقى مجال لهذا العبث .

ادعياء الطب

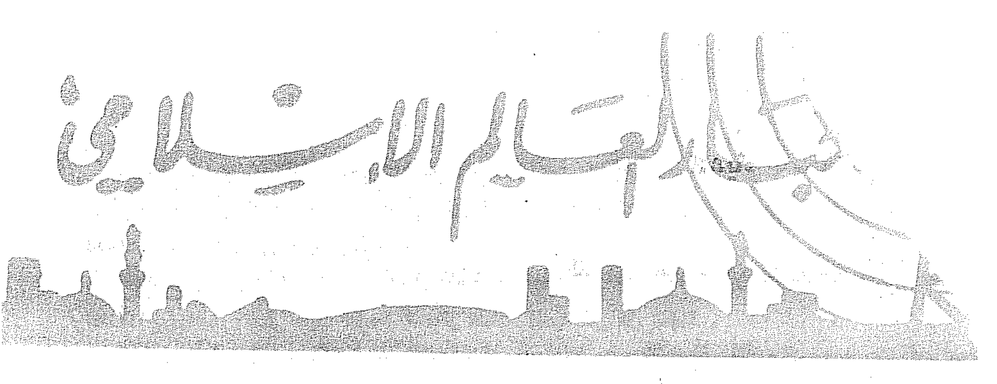
مرض ابنى ، فأشار على بعض الناس بعرضه على رجل يمارس علاج المرضى دون اجازة رسمية ، وكانت نتيجة العلاج أن فقد ابنى احدى عينيه ، فهل هناك مسئولية قانونية وشرعية على هذا الرجل المعالج .

سعيد الهاشمى — البصرة

لم يختلف العلماء فى أن الانسان اذا لم تكن له بالطب دراية فعالج مريضا فأصابته من ذلك العلاج عاهة ، فانه يكون مسئولا عن جنايته ، وضامنا بقدر ما أحدث من ضرر لأنه يعتبر بهذا متعديا ، ويكون الضمان فى ماله ، روى أبو داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من تطبب ، ولم يعلم منه قبل ذلك الطب فهو ضامن » .

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : حدثنى بعض الوفد الذين قدموا على أبى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما طبيب تطبب على قوم لا يعرف له تطبب قبل ذلك فأعنت (اضر بالمريض) فهو ضامن » .

وأما المسئولية القانونية المدنية فيقع هذا الدعى تحت طائلتها ، وقبل أن تلوم هذا المشعوذ يجب أن تلوم نفسك وأنت ولا شك تتحمل امام الله عز وجل مسئولية هذا الضرر الذى أصاب ابنك بلجوئك الى هؤلاء المشعوذين ونحن فى زمن تيسرت فيه وسائل العلاج .



اعـــداد ع.ب

الكويت : تفضل حضرة صاحب السمو أمير البـلاد المعظم فى ٧٠/١٢/٥ فافتتح الاجتمـاع الثانى للدورة الرابعة لمجلس اتحاد الجامعات العربية وحفل توزيع الشهادات على خريجى الدفعة الأولى لجامعة الكويت .

● قام سمو الأمير نواف بن عبد العزيز المستشار الخاص لجلالة الملك فيصل بزيارة للكويت وقال أن الغاية من زيارته هو زيادة توثيق الروابط الأخوية القائمة بين البلدين الشقيقين .

● صدر بيان عن التحولات فى سياسة التعليم وتطوره النوعى بالكويت بحيث أصبح يشمل أنواعا جديدة من المعاهد المهنية بحيث تتمشـى السياسـة العلمية مع السياسـة الاقتصـادية والاجتماعية .

● بعثت الكويت فى الشهر الماضى عشر شاحنات كبيرة تحمل ١٢٠ طنا من المواد الغذائيـة والثياب والبطانيات الى الاردن لمساعدة منكوبى الفتنة بين الجيش والفدائيين .

● تبدأ هذا الشهر الانتخابات لاختيار أعضاء مجلس الأمة الجديد .

● دعت وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية لتشييد مدينة لاستقبال الحجاج الذين يمرون بها فى طريقهم الى الحج وقد زودت المدينة بكافة المرافق اللازمة .

● اقيمت صلاة الغائب فى الشهر الماضى على ضحايا الاعصار فى باكستان الشرقية .

القاهرة : خرجت بعثات دبلوماسـية الى مختلف دول العـالم بعد أن أعلن الرئيس انور السادات أن الجمهورية العربية المتحدة لا يمكن أن توافق على تجديد فترة وقف اطلاق النار مرة ثالثة الا اذا كان هناك جدول زمنى لانسحاب اسرائيل من المناطق العربية المحتلة .

● ستنشأ جامعة أزهرية جديدة خاصة للبنات .

● تقرر انشاء معهد دينى فى محافظة مطروح لا ستيعاب الطلاب الراغبين فى التعليم الدينى من محافظات طبرق ومطروح والواحات .

السعودية : أصدرت وزارة الصحة بيانا أعلنت فية سلامة الأماكن المقدسة من أى وباء وأن المملكة ستستقبل الحجاج ككل عام نفيا لاشاعة بخلاف ذلك .

● بدأت البلاد منذ الشهر الماضى تستقبل وفود الحجاج الى بيت الله الحرام ، وقـد اتخذت الترتيبات الصحية لتجنب الحجاج أى خطر من أى مرض .

العراق : ستساهم الكويت بمبلغ ٣ ملايين دينار لتمويل مشروع المحطة الكهربائية على سد سامراء فى نطاق التعاون الاقتصادى بين البلدين .

الأردن : تجددت الاشتباكات فى أوائل الشهر الماضى — للمرة الثانية — بين الجيش الأردنى والفدائيين الا أن اللجنة العربية لمراقبة تنفيذ اتفاقية القاهرة وعمان استطاعت اخماد الاشتباكات .

● اعلن وزير شئون المهاجرين فى اسرائيل أن اسرائيل تتوقع وصول ربع مليون يهودى فى السنوات الخمس القادمة الا انها فشلت فى اقناع مائة الف يهودى هاجروا من اسرائيل بالعودة اليها .

سوريا : زار سوريا رئيس الوزراء اللبنانى فى محاولة لتوثيق الروابط واعادة التعاون بين سوريا ولبنان عقب تشكيل الحكومة السورية الجديدة .

لبنان : وجهت رابطة مشروع بيت مال المسلمين لجباية فريضة الزكاة وتنظيمه المجلس الاسلامى الأعلى بشأن عقد جلسة مفتوحة لاطلاع الرأى العام على المشروع ، مدخوله بنحو ٥٠ مليون ليرة لبنانية .

ليبيا : بعد رحيل الايطاليين الذين كانوا فى ليبيا تحولت الكاتدرائيتان الايطاليتان الى مسجد وافتتحتا يوم عيد الفطر حيث أقيمت شعائر صلاة العيد فى كل منهما .

تونس : قرر الرئيس التونسى الاسراع فى ترميم جامعى الزيتونة والقيروان وعدد من الجوامع التاريخية من ميزانية رئيس الجمهورية .

الجزائر : اعلن الرئيس بومدين أن عام ٧٠ شهد حل المشكلة بين الجزائر والمغرب وقال ان اقامة المغرب الكبير لا يتعارض مع الوحدة العربية .

المغرب : افتتح فى المغرب فى الشهر الماضى سد تبلغ تكاليفه ١٢ مليون جنيه استرلينى ساهمت ايران بنسبة ٥٥٪ بينما ساهمت الكويت بالباقى .

● أعلن جلالة الملك الحسن فى حفل اعتماد سفير تونس لدى المغرب اننا عازمون على تشييد صرح المغرب العربى الكبير واننا نعول على الرئيس بورقيبة فى هذا السعى .

تركيا :

● انشئت فى استانبول وكالة انباء اسلامية باسم وكالة الأنباء الشرقية لأخبار العالم الاسلامى وقد بدأت الوكالة عملها فى اذاعة ونشر الأخبار الاسلامية .

● أعلن معهد الاحصاء التركى أن عدد السكان فى تركيا بلغ وفق آخر احصاء سنة ١٩٧٠ م (٣٥/٦٦٦/٥٤٩) .

باكستان : قام وفد تجارى ماليزى بزيارة الى باكستان فى نطاق تدعيم التعاون التجارى والصناعى بين البلدين المسلمين .

الهند :

● عقد الطلبة الخريجون من الجامعة الاسلامية بعليكرة اجتماعا فى دلهى لبحث الوضع الناجم عن مشروع قانون تعديل الجامعة المقدم الى البرلمان الهندى .

ماليزيا : قبلت ١١ دولة الدعوة للاشتراك فى المباراة الدولية السنوية فى تلاوة القرآن التى ستبدأ فى ١٧ يناير ١٩٧١ وهذه الدول هى باكستان ايران ماليزيا تايلاند كمبوديا الهند اندونيسيا سنغافورة برونى هونج‌كونج .

كينيا : انشأ التجمع الاسلامى فى كينيا جمعية اسلامية وطنية جعل مقرها نيروبى وهدفها العمل على تنسيق جهود الجمعيات المختلفة فى نشر الدعوة الاسلامية بمختلف الوسائل .

غينيا : صدت غينيا عدة هجمات برتغالية للاطاحة بنظام الحكم فى البلاد وقد بعثت الامم المتحدة بلجنة لتقصى الحقائق وأصدرت المنظمة الدولية بيانا يدين فيه البرتغال .

اخبار متفرقـــة

فرنسا: قررت عدة جامعات فرنسية تدريس اللغة العربية لطلابها كلغة ثانية وانتدبت لهذه المهمة مدرسين عرب .

اليونسكو : أيدت اللجنة الادارية لمنظمة اليونسكو فى دورتها الحالية جعل اللغة العربية لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغات الرسمية للمنظمة .

لندن : وجهت الجمعية الاسلامية فى مانشستر بيانا الى المسلمين فى العالم يناشدهم فيه بالتبرع لاكمال المركز الاسلامى فى مانشستر والذى يتكلف مائة الف جنيه استرلينى وجمع منها ١٨ الفا .

عقب اصدار قانون باباحة الطلاق تقدم حتى الآن حوالى ٢٧ الف طلب من راغبى الطلاق .